أبطال الجزيرة الخضراء



عبد الحميد جوده السحار

إهـــــداء ٢٠٠٩

أ.د/خالد عزب

جمهورية مصر العربية

مطبوعات مكتبة مصر

أبطال الجزيرة الخضراء

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

كلمة الناشر

منذ وقت قريب ،

أحضر لى د . صلاح عبد الحميد ، نجل شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جوده السحار ، كراسات وأوراقا مخطوطة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة ، قال إنه عثر عليها فى مكتبة والده :

فلما تصفحتها وجدت أنها تشتمل على :

(١) ثلاث قصص قصيرة لم يسبق نشرها ، عناوينها : « أبطال الجزيرة الخضراء » ، « يوم عصيب » ، « كلنا إخوة » .

(٢) قصة وسيناريو وحوار فيلم دينى طويل عنوانه : « الله أكبر » .

(٣) قصة وسيناريو وحوار فيلم دينى عنوانه « مسجد الرسول » .

(٤) قصة وسيناريو وحوار فيلم اجتماعى عنوانه : « عشاقها الثلاثة » أو « ثلاثة رجال فى حياتها) » .

(٥) قصة وسيناريو وحوار فيلم اجتماعى عنوانه : « النمر » .

(٦) قصة وسيناريو وحوار فيلم اجتماعى « رمزى » عنوانه : « خطيئة ملاك » أو « عدو البشر » .

فلما فحصت عن تلك الكراسات والأوراق ، وجدت أن القصص الثلاث : أبطال الجزيرة الخضراء ، ويوم عصيب ، وكلنا إخوة ــ لم يكتبها المؤلف لتكون قصصا قصيرة بالمعنى المفهوم ، وإنما هى عبارة عن ملخصات لروايات طويلة وقصص سينمائية كان الأديب الراحل يعتزم كتابتها .

ووجدت أنه سجل وقائع كل منها فى تسلسل رائع ، ورسم شخصياتها بدقة بالغة ، حتى إن القارئ ليجد فى قراءتها متعته كاملة غير منقوصة .

لذلك رأيت أن أبدأ بنشرها فى هذه المجموعة التى أقدمها اليوم للقراء . كما أقدمها لدارسى إنتاج الأديب الراحل عبد الحميد جوده السحار ، علها تنفع فى توضيح أو تأكيد بعض ملامح شخصيته .

أما سيناريوهات أفلامه : الله أكبر ، ومسجد الرسول ، وعشاقها الثلاثة ، والنمر ، وعدو البشر فسأنشرها بمشيئة الله تعالى تباعا .

وبالله التوفيق ؟ .

سعيد جوده السحار

خطوط جديدة للثقافة السينمائية :

ما هى القصـــة ؟

هى حـــكاية نثرية ذات أطوال مختلفة تتعلق بشـــخصية أو شخصيات ، والحوادث والحركات التى تأتيها هذه الشخصيات. وقـــد تكون القصة هادئة تروى مألوف الحياة لفرد أو مجموعة أفراد فى سرد فنى أخاذ ، وقد تكون صاخبة تروى مغامـــرة من المغامرات ، كقصة سفينة تحطمت على شاطىء جزيرة مهجورة ، وما يقوم به الناجون من أفعال فى تلك الجزيرة .

وعلى ذلك فالقصة دراسة شـــخصية من الشـــخصيات ، أو دراسة حالة من الحالات ..

فـــكرة القصـــة :

فكرة أية قصة مهما كان نوعها ، ســـواء أكانت قصـــة حب ساذجة كقصة عزيزة ويونس ، أم قصة أجيال متعاقبة ترى فيها الشخصيات العديدة الحية ، والأحـــداث التاريخية ــ كقصـــة « الحرب والسلام » لتولستوى ــ تبدأ كوميض يبرق فى رأس المؤلف ، باذرا فيه جرثومة الفكرة التى يمكن تلخيصها دائما فى كلمات قليلة ..

ففكرة قصة «الرداء» مثلا يمكن تلخيصها فى شاب رومانى

يتولى صلب السيد المسيح ، ثم يؤمن به بعد الصلب فيكرس حياته للدفاع عن المسيحيين المضطهدين ، ثم يضحى بحياته لينقذ اخوانه وليكون أهلا لملكوت السماء .

يتعهد المؤلف هذه الفكرة البسيطة ، ثم يرعاها كما ترعى الأم وليدها ، ويأخذ فى تغذيتها بعصارة فكرة حتى يشتد عودها ويقوى عظمها وتمتلىء لحما ، ثم يدفعها بعد ذلك الى القراء أو المشاهدين ليحكموا لها أو عليها .

أهناك قصص جديد يقص :

لم يعد هناك مواضيع جديدة تقص ، فقد استنفدت الأجيال المتعاقبة الحكايات كلها ..

لذلك لا نطمع فى أن يأتى قاص بجديد فى الموضوع ، ولكننا نطمع فى أن نرى علاجا جديدا .

ان هدف الأدب وصفته اللازمة هى قدرته على أن يعيد ترجمة الحقائق الأزلية على ضوء التجارب الوقتية . فعلى الرغم من أن الطبيعة البشرية لاتتغير ، فان الملابسات فى تغير مستمر . فالانسان العادى اليوم يشبه الانسان الذى سبقه على مر العصور فى أشياء ، ويختلف عنه فى أشياء .. فهو يشبهه فى صفات الانسان الفطرية الغريزية ، ويخالفه فى الصفات العقلية المكتسبة من الأحوال الاجتماعية المتغيرة التى تكون بيئته . لقد

صارت الحياة أكثر تعقيدا مما كانت ، فقد نتج عن الثورة الصناعية مشاكل اجتماعية واقتصادية ، ووسعت فى نفس الوقت من نشاط الانسان ونوعيته ، فأصبح على القاص أن يراعى هذه الملابسات عندما يريد معالجة حادثة حسية أو روحية . أضف الى ذلك أن معلومات الفرد العادي فى هذا العصر قد ارتقت عن معلومات الفرد العادى فى العصور السابقة ، فهو يعرف جيدا أن الانسان ليس طيبا كله ولا رديئا كله ، وعلى ذلك فلن يقبل الخطوط السوداء فقط عند رسم شخصية من الشخصيات ، أى أنه لن يقبل أن تصور له شخصية شريرة كلها ، أو شخصية خيرة كلها ، بل لابد أن تصور له الشخصية كما هى مزيج من الشر والخير .

واذا كانت الشخصيات التى تقدمها السينما المصرية اما خيرة كلها أو شريرة كلها ، ومع ذلك تقبل جمهرة المشاهدين هذه الخطوط السوداء فقط عند رسم الشخصية ، فما ذلك الا لأن جمهرة المشاهدين مازالوا فى سن « المراهقة الفنية » ، فاذا مانضجوا فنيا فلن يقبلوا أبدا مثل هذه الشخصيات .

الذوق الفنى فى تغير مستمر :

تتبع القصة تغير الذوق الفنى ، فكلما ارتقى الذوق الفنى ارتقت القصة . فالقصص التى سلبت لب اسلافنا قد لاتروق لنا

اليوم ، والقصص التى تفتننا اليوم قد لاتعجبنا غدا . وآية ذلك أننا ننشد دائما ما هو أفضل مما يقدم الينا ـ وأننا نرى الآن أن مايعجب الخاصة لا يعجب العامة ، وكثيرا ما نجد اثنين يختلفان فى تقدير قصة واحدة .. وعلة ذلك أن أحدهما يحكم عليها بذوقه الفنى الذى تهذب وارتقى ، والآخر بذوقه الفنى الذى لم يتبلور بعد .

الصلة بين القصة الادبية أو السينمائية والجمهور :

القصة سواء أكانت أدبية أم سينمائية ـ ككل عمل فنى ـ تعجز عن أن تبرز محاسنها بنفسها ، بل لابد لها من آخرين يبرزون هذه المحاسن . فالموسيقى تحتاج إلى مستمع يصغى اليها أولا ثم يقدرها ، ويحتاج الشعر والنثر والقصة الى قارىء ، ويحتاج الفيلم الى مشاهد .. فلولا السامع والقارىء والمشاهد لما كان للعمل الفنى من وجود . وعلى ذلك فالقصة سواء أكانت أدبية أم سينمائية لا وجود لها حتى تقرأ أو تشاهد ، فيهبها القارىء أو المشاهد الحياة . وهى تعيش فيه فى أثناء قراءتها أو مشاهدتها ، فهى لذلك تعتمد عليه فى صفاتها .

المراهقة الفنية :

يمر الرجل فى أطوار الطفولة فالمراهقة فالرجولة ، قبل أن يتم نضجه ، وتمر الشعوب بنفس هذه الأطوار قبل ان يكتمل

نضجها . فالشعوب فى طفولتها الفنية تستهويها النصائح والحكم وقصــص البطولة والمغامــرات . وفى مرحلة مراهقتها تهفو الى القصــص العاطفية التى يعمد المــؤلف فيها الى افتعال المواقف افتعالا ليسلب من العيون دموعها ، أو اثارة المشــاعر بمثيرات كلها تكلف وافتئات على الحقيقة الفنية . وتعكف الشــعوب فى مرحلة نضجها على دراسة مشاكلها وتلمس العلاج لها .

وان تهافت جمهرة القراء والمشاهدين عندنا على القصــص المغرقة فى العاطفية المفتعلة ، لخــير دليل على أننا مازلنا فى طور المراهقة الفنية .

القصص الأدبية الناجحة والقصة السينمائية الناجحة :

لا يوجد مقياس دقيق لمعرفة القصة الجيدة ، فالقصة ككل عمل فنى يختلف الناس فى تقديرها . وليس من السهل أن نختبر قصة كما نختبر سيارة أو قطعة قماش ثم نجــزم بجــودتها أو رداءتها عقب اجــراء الاختبار . وان الاختبار الوحيد لتقديــم قصة ما هو مدى تأثير هذه القصــة فى القارىء أو المشــاهد ، فالقصة التي يعجب بها فرد هي القصة الجيدة عند ذلك الفرد .

القصـــة

ولمـا كانت القصة كما قلنا لاتعتمـد على نفسـها فى ابراز محاسنها ، بل تعتمد على القارىء أو المشاهد لتحيا فى نفســه ، فانه يتعذر الحكم لها أو عليها بقيمتها النفســية فقط . وبغض النظر عن القارىء أو المشاهد فقد تكون القصــة متوافرة فيها جميع الشروط التى تجعلها قصة كاملة ناجحة ، ومع ذلك يكون الاخفاق نصيبها ، لا لعيب فيها ، بل لعيب فى القارىء أو المشاهد الذى لم يتكون ذوقه الفنى .

الشروط الواجب توافرها فى القصة الجيدة :

١ ـ حبكة القصـــة :

تندفع فيها الشخصيات والحوادث حتى تبلغ القصة نهايتها . وعلى القاص أن يكون فكرته ، أن يسلسل حوادثها تسلســلا طبيعيا منطقيا ، وهذا يحتاج من المهارة الى ما يحتاج اليه صنع قطعة أثاث دقيقة الصنع مثلا ، فكما أن قطعة الأثاث لا تكــون رائعة الا اذا كانت كاملة الشـــكل متناســقة الأجزاء ، فكذلك القصة لا تكون أخاذة الا اذا كانت كاملة متناسقة . وعلى ذلك فعلى القاص ألا يهمــل تفاصــيل قصــته الضرورية .. عليــه أن يبدأ قصته بداية قوية أخــاذة تجذب القارىء أو المشــاهد وتجعله يتبعه مشغوفا ، ويستولى عليه ويسير به فى مهارة حتى

يبلغ به النهاية الطبيعية التى تجعله يعتقد أن لانهاية للحوادث والأفعال المروية غير تلك النهاية .

واذا قادت القصة القارىء الى نهاية لاتتفق مع حركات الشخصيات وأفعالها ، فانها تكون نهاية رديئة مفتعلة . وان مثل هذه النهاية لدليل على سوء الحبكة ورداءة البناء وإخفاق المعالجة ، وقد حدث أن اقتبست السينما المصرية قصة أجنبية كانت البطلة فيها مريضة بالقلب ، لأن المؤلف أراد أن يمهد بذلك المرض لموت البطلة فى نهاية الفيلم . ولكن المقتبس المصرى رأى أن أعصاب جمهوره لاتتحمل موت البطلة ، فجعلها مريضة بالقلب أيضا ، ولكن لا لتموت فى نهاية القصة .. بل لتتزوج ، كأنما هناك علاقة طبيعية بين مرض القلب والزواج .

والحبكة نوعان ، نوع يعتمد على الحوادث الضخمة وتسلسلها تسلسلا أخاذا يستولى على لب القارىء أو المشاهد ، وهذا النوع هو النوع المناسب للسينما لأنه يعتمد على الحركة وان كان أقل قيمة من وجهه النظر الأدبية البحتة من النوع الثانى .

والنوع الثانى يعتمد على الأشخاص وما ينجم عنهم من أفعال ، وأنهم وأفعالهم وخواطرهم وما يدور فى صدورهم محور القصة الرئيسى ، وان الحادثة فى هذه القصص لا تأتى لذاتها ، بل لتفسير الشخصيات .

٢ ـ الشخصيات الحية :

هذه هى الخاصية الثانية من الخواص الضرورية للقصة الناجحة ، فالحبكة وحدها قد تكفى فى السينما لابراز قصة جيدة . لأن الممثلين يهبون الشخصيات التى يمثلونها الحياة .. أما القصة الأدبية فلابد أن يبذل المؤلف كل فنه ليجعلها نابضة بالحياة . فكلما كانت الشخصيات التى يرسمها حية كانت القصة حية ، فعلى قدر الحياة التى فى شخوص قصته يكون النجاح .

ان القاص الناجح هو الذى يخلق لنا أناسا خالدين لا ننساهم ، بل تظل صورهم عالقة فى أذهاننا . وان من مميزات الشخصية القصصية الحية أنها تبقى بينما تندثر شخصيات عظيمة كانت تدب فى الحياة .

الحياة الداخلية والخارجية للأبطال :

السينما قادرة على أن تصور لنا الحياة التى يحياها أبطال القصة والحركات التى يأتون بها ، ولكنها تعجز عن تصوير ما يدور بداخلهم وما يعتمل فى صدورهم من أحاسيس . وان تعمق لشخصيات وتفسير ما يدور فى عقولها هى مهمة القاص الناجح . لذلك تقف السينما حائرة أمام أعمال قصصية رائعة تعتمد على التحليل النفسى . فان الحادثة فى مثل هذه الأعمال هى أتفه شىء فيها . فاذا تصدت السينما لاخراج مثل هذه

القصص فانها تذهب بكل ما فيها من جمال . تم لايبقى بعد ذلك منها الا التافه المتهافت .

٣ ـ الأسـلوب :

هو الخاصية الثالثة للقصة الناجحة ، وهو الطريقة الخاصة التى يسرد بها المؤلف ـ أو « السينارست » فى السينما ـ قصة .

فكما أنه لا يوجد فى الحياة اتنان يتكلمان أو يتحركان بطريقة واحدة متشابهة من كل الوجوه ، فانه كذلك لا يوجد كاتبان لهما أسلوب واحد تماما .

الواقعيـة

القصة الواقعية ليست نقل الحياة كما هى فى فوضى واضطراب ، بل على القاص الواقعى أن يروى الواقع فى تريث وتسلسل ونظام ، ولا يضيره أن يقدم فى الحوادث أو يؤخر ، أو يطيل أو يهذب أو يحذف ، مادام نتيجة ذلك انتظام عقد الحوادث وتسلسلها التسلسل المنطقى .

ان عمل القاص الواقعى هو أن يبرز الحوادث التى تقع أمام أعيننا كل يوم فى ثوب جذاب ، وأن يفسرها لنا ويوضحها حتى يجعلنا نخال أننا نراها لأول مرة جديدة مزهوة .

القصة السينمائية الناجحة

ومقياس نجاح القصة السينمائية هو مقدار ما تدره من أرباح ، لأن السينما قبل كل شيء عمل تجارى . وعلى ذلك فهى القصةالتى ترضىأذواق الطبقات نظريا، ولماكان ذلك يعنى تذوقها عمليا ، فهى القصة التى ترضى الغالبية العظمى من الناس الذين يشاهدونها ، وينبغى أن تكون ملائمة للسرد السينمائى . فرب قصة أدبية ناجحة لا تصلح للسينما اطلاقا .. وهذا لا يضيرها لأنها تؤدى وظيفة تعجز السينما عن أدائها . وينبغى أن تكون القصة السينمائية ملائمة لنجم من نجوم السينما المتعاقدين مع الشركة المنتجة ، وأن يتيسر سردها على الشاشة ، فقد تعجب القصة المنتج وتستولى على لبه ولكنه لا يجرؤ على الاقدام على اخراجها لقيام صعوبات فنية تحول دون ذلك ، وأن يستغرق عرض القصة مدة ٩٠ دقيقة غالبا .

الاثارة القصصية

القصة الجيدة هى عصب كل فيلم ، لذلك اهتمت بها الشركات العالمية ، فاسست شركة مترو جولدوين ماير مثلا ادارة ألحقت بها ١٥ قارئا يقرءون كل القصص والمسرحيات التى تظهر خلال السنة ، ثم يلخصونها ويدونون ملاحظاتهم عليها ،

ويدفعون بالملخصات الى المنتجين . فاذا ما أعجب منتج بملخص طلب أصل القصة أو المسرحية ليقرأها كاملة ، لأن تلخيص العمل الفنى هو تشويه له من غير شك ولن يعطى صورة صادقة عنه .

ويعين هؤلاء القراء من خريجى الجامعات ممن لهم رصيد من الثقافة العالية والخبرة الطيبة بالآداب العالمية ومن سافروا كثيرا . ويفضل من يتقن أكثر من لغة حتى يتمكن من تلخيص القصص والمسرحيات الأجنبية .

ويدفع للقارىء منهم مبالغ تتراوح بين ٥٥ جنيها و ٤٠ جنيها فى الأسبوع ، وهم يلخصون فى السنة حوالى ألف قصة ، وعلى الرغم من ذلك فان ستوديو مترو يجد صعوبة فى اختيار قصص الأفلام التى يقرر انتاجها فى السنة ، ويتراوح عددها بين ٣٠ ، ٥٠ فيلما .

وما ذلك الا أن الاستوديو عندما يشترى قصة ، فإنه يقدم على استثمار رأس مال فيها يتراوح بين مئات الآلاف من الدولارات وثلاثة أو أربعة ملايين منها .

هذا هو مقدار اهتمامهم بالقصة ، لأنهم يعلمون أنها عصب الفيلم . فهل آن لنا أن نعطيها بعض ماتستحقه من اهتمام ؟..

ملخص مبدئى لفيلم :

شياطين الجزيرة الخضراء

الأهداف الأساسية للقصة :

يعمل هذا الفيلم على تثبيت مجموعة من المفاهيم أو القيم الأساسية ، مستعينا بأحداث القصة وبطريقة رسم الشخصيات وبالمعالجة السينمائية لها . .

— فالمعركة التى يخوضها المصريون تعتمد أساسا على حب المصرى لأرض وطنه وإحساسه بالانتماء له ، وهو إحساس توارثه منذ آلاف من السنين ومازال يمثل قطعة من وجدانه . .

— والمصرى رغم أنه يحس فى أعماق نفسه أنه فلاح مسالم . . إلا أنه عندما تدعوه الظروف إلى حمل السـلاح ، فهو مقاتل عنيد قوى شجاع يدافع عن قضيته بغير ملل ، وبصبر لا يعرف الوهن ؟؟

وهذه أيضا من الحقائق التى عاشها المصريون طـوال تاريخهم الحضارى الطويل . .

— وهذه المعركة التى يخوضها الشعب المصرى الآن . . دفاعا عن أرضه ودفاعا عن مستقبل الأرض العربية كلها . . يسانده فيها أصدقاء يتمثلون فى الشعوب الصديقة التى ترتبط مصلحتها فى التحرر بمصلحته فى التحرير . . وبفضل هذه الصداقة تزيد كفاءة المصرى فى الدفاع ، وفى القدرة على تحرير أرضه ،وعلى بناء حاضره ومستقبله على النحو الذى يريد . .

أما على الطرف الآخر من القضية ، فتقف مجموعة غير متجانسة من يهود العالم لا يجمعهم إلا التعصب لفكرة دينية استعمارية ، هى إقامة دولة تقوم على الدين ، وتتحالف من أجل تنفيذها مع المصالح

(أبطال)

الاستثمارية الأجنبية . و هذه الدولة تنشأ على أرض يملكها أصحابها من آلاف السنين . . فلابد إذن من طرد هؤلاء وتشريدهم بدعوى تأمين اليهود مما قد يلاقونه من طرد وتشريد على نحو ما واجهتهم به النازية . . فهم بالتالى يستخدمون نفس العقلية النازية وأساليبها . . ويخلقون حالة غريبة من التمزق فى نفوس يهود العالم ، بين الولاء لأوطانهم الأصلية ، والولاء لهذه الدولة الجديدة القائمة على التعصب والحقد . .

ولذلك فإن الطابع المميز لكثير من أفراد هذا الطرف من المعركة هو التعصب والحقد ، ثم التمزق بين أحلام عريضة فى خيالهم ومتناقضات لا تحل فى الواقع الذى يعيشونه .

الشخصيات الرئيسية :

١ — محمود :

بطلنا الأول — مهندس ميكانيكى . : يبلغ من العمر عند بداية قصتنا عام ١٩٦٦ حوالى ثلاثين سنة ، أى أنه من مواليد ١٩٣٦ . . تخرج فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة بسنة ١٩٥٧ . . أى أنه من جيل الثورة . . فعندما قامت الثورة سنة ١٩٥٢ لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . . وارتبط تخرجه فى الجامعة وبدء حياته العملية بعملية التحول الاقتصادى والاجتماعى فى مصر الذى بدأ عقب انتهاء عدوان سنة ١٩٥٦

وهو — ولو أنه تخرج فى جامعة القاهرة — إلا أنه ليس من أهالى القاهرة ، فهو ابن عائلة متوسطة تعيش فى إحدى قرى بنى سويف — بصعيد مصر — وتتميز شخصيته بالمرح والانفتاح على المجتمع وعدم التعقيد ، شأنه شأن من قضى طفولته وشبابه بغير مشاكل . . وليس له اهتمامات سياسية محددة ، فكل شيء يسير من وجهة نظره — فى بداية قصتنا — سيره الطبيعى الذى لا يدعو إلى الدخول فى معارك للدفاع أو الهجوم .

وهو قوى البنية بشكل واضح . . .

نراه فى بداية قصتنا متزوجا وله طفلة فى الخامسة من عمرها . . أى أنه تزوج حوالى سنة ١٩٦٠ وكان عمره حينذاك حوالى ٢٤ سنة . . . العلاقة التى تربطه بزوجته علاقة حب هادئ عميق لا يأخذ أى شكل صارخ على السطح . . بل إننا نراه يهوى مشاكستها دائما ، بل وربما بشكل ثقيل أحيانا . . ولكن حبه يظهر دائما فى جو الأزمة . . عندما يتعرض شيء ما للخطر . .

أخلاقياته متوازنة وطيبة رغم ما يبدو عليه من الميل إلى التهريج والمرح الشديد . .

أدى خدمته العسكرية فى سلاح المدفعية بعد أن تطوع كضابط احتياط بعد تخرجه مباشرة ، حيث قضى فى الخدمة سنتين التحق بعدهما بمصنع تكرير البترول فى السويس . .

وقبيل أحداث يونية سنة ١٩٦٧ دعى إلى الخدمة ، ولكنه أعفى إعفاء مؤقتا استنادا إلى أن عمله فى المصنع يستحيل معه إعفاؤه منه . . ولم يكن يحس أى حماس للعودة إلى الخدمة العسكرية .

٢ — ثريا :

زوجة محمود . . وتعمل كيمائية . . خريجة قسم الكيمياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٦٠ ، وهى من مواليد عام ١٩٣٨ ، أى أنها تبلغ من العمر عندما تدور أحداث قصتنا عام ١٩٦٦ حوالى ٢٨ سنة — فهى تصغر محمود بعامين . .

ولدت وعاشت فى القاهرة . . من عائلة متوسطة . . والدها موظف بالحكومة . .

لشخصيتها جانبان متميزان . .

فهى من ناحية زوجة مصرية جدا . . كأنها امتداد لشخصية أمها . . وجدتها ، ذلك الجيل الذى لم يكن قد خرج إلى الحياة العامة وتمركز كل اهتماماته فى الأسرة . . تجيد خدمة زوجها ورعايته وتهتم لاهتماماته . . وهو فى نظرها محور الوجود . . ومع ذلك فهى أم ممتازة ، ولو أنها تبالغ فى العناية والعطف على طفلتها وتدليلها ، خصوصا وهى لم ترزق غيرها نتيجة إصرار محمود على تأجيل وصول الطفل الثانى ، ولو أن ذلك ضد عواطفها ؛ وهى

أيضا ربة بيت ترهق نفسها فى كل ما يتعلق بشئونه . . ومع ذلك تجد الفرصة والوقت للعناية الكبيرة برشاقتها ونعومتها وأناقتها . .

والجانب الثانى فى شخصيتها هو فى كونها امرأة عاملة . . فنجدها فى معملها جامدة الوجه صارمة ، كثيرا ما تضع على عينها منظارا طبيا — تعقص شعرها إلى الوراء حتى لا تكاد تميزها عن زملائها من الرجال . .

أما فى تعاملها مع أصدقاء العائلة ، فهى تعاملهم فى بساطة ونعومة شديدتين . . تجامل زوجها فى مزاحه ومشاكساته . . ولو أنها فى قرارة نفسها — وفى لحظات خاصة — لا تستسيغها .

٣ — فتحى :

صديق محمود فى القوات المسلحة . :

تعرف به بعد انضمامه إلى وحدته فى السويس ، فاكتشف أنه زميل قديم منذ أيام الدراسة . . كانا يسكنان فى نفس الحى . . ولكن فتحى كان طالبا بالآداب . . ولكنهما كانا يلتقيان دائما . . يجمعهما انفتاحهما الطبيعى للآخرين ، واندفاعهما الشاب نحو كل مغامرة جديدة . .

وفتحى لم يتزوج . . فقد أحب خلال سنوات دراسته زميلة له فى الكلية بادلته الحب . : ولكنها مع ذلك تزوجت فى سنتها الدراسية الأخيرة أحد أقربائها استعجالا لفكرة الزواج . . ولأنها — فيما يبدو — لم تكن تأخذ علاقتها بفتحى ولا شخصيته كلها مأخذ الجد . . فعزف عن فكرة الزواج نهائيا ، واستعاض عنها بسخرية مريرة بالزواج وبالمرأة ، واستهدف بنكاته دائما أصدقاءه المتزوجين . .

شخصيته فيها شجاعة غير عادية . . أقرب ما تكون إلى الاستهتار بالحياة واليأس منها ، رغم أنه يحاول أن يعتصر كل دقيقة فيها . .

٤ - سلامة :

أو عم سلامة . . كما يحلو لكل من يعرفه أن يناديه . .
وكما يحب هو أن ينادى . .
ناظر مدرسة ابتدائية فى السويس . . قارب أن يصل إلى سن المعاش . . رب أسرة كبيرة مكونة من خمس بنات وولدين فى سن الشباب أكبرهما فى العشرين من عمره تقريبا . . طالب بالمعهد الصناعى بالسويس . . ومن الشباب المتحمس ضمن قيادات منظمة الشباب فى المدينة . .
عم سلامة لا هم له فى الحياة إلا رعاية أبنائه . . رجل متدين شديد الإيمان بالله والقدر . . وهو راض بكل ما يصيبه منه . . يوزع وقته بين المدرسة والبيت والقهوة . .
والقهوة مجاورة لبيت بطلنا محمود . .
وعم سلامة من هواة لعب الطاولة — ويعتبر نفسه أحد أبطالها . .
يستغل وظيفته فى جانبين . . فهو يرغم معظم أفراد أسرة التدريس بالمدرسة الابتدائية على الدخول معه فى مباريات الطاولة على القهوة كل مساء . . ويستعرض عضلاته فى اللعبة أمامهم . . ويسعد جدا لتملقهم إياه . .
إلى جانب أنه يستغل فراشى المدرسة فى قضاء كل ما يتعلق بطلبات أسرته وشئونها . .
ولا يسلم محمود كذلك من مباريات الطاولة معه . . وهو يحتملها . . رغم عدم ميله لها ، وذلك لاستمتاعه بصحبة عم سلامة . . وبذكرياته التى لا تنتهى عن الماضى وحلاوة أيام زمان . . أيام كانت العشرين بيضة بقرش . . ورطل الضانى بقرشين ، وشماتته فى الجيل الجديد الذى لم يذق طعم الدنيا كما فعل هو فى شبابه . .
وهو فى النهاية شخصية جماهيرية . . عمود من أعمدة القهوة . . ومركز ن مراكز النشاط الاجتماعى فى السويس .

٥ – سيكورسكى (دافيد) :

، طيار بولندى شاب . . فى الثامنة والعشرين من عمره تقريبا : .
أبوه مهندس بولندى يعمل ويقيم فى وارسو . . وقد ولد الشاب هناك أيضا (حوالى عام ١٩٣٨) قبيل بداية أحداث الحرب العالمية الثانية . :
وخلال سنوات الحرب ماتت أمه تحت الأنقاض ، ووضع أبوه فى أحد معسكرات الاعتقال النازية . . وتولت رعايته أسرة مسيحية طيبة فى ريف بولندا كانت تربطها بالأم صداقة . . وعاد طفلا إلى أبيه بعد نهاية الحرب وبعد خروج والده من معسكر الاعتقال سنة ١٩٤٥ . :
لم يذق طعم الحرب ، ولكن ذاكرته تعى الكثير مما قصه عليه أبوه عن سنوات وجوده فى المعتقل النازى . . ولديه الكثير من الصور الفوتوغرافية التى تصور أحداث تلك الفترة . .

شارك ضمن الشباب البولندى فى إعادة بناء بولندا الجديدة (ولو أنه ليس عضوا فى منظمة الشبيبة البولندية) . . ولكن فى ذاكرته أبدا سنوات طفولته ، والذكريات المفزعة التى رواها له أبوه . . رغم أن لون الحياة التى عاشها فى شبابه المبكر كانت أميل إلى الترف بحكم دخل والده الكبير من عمله . .

الشاب بولندى مخلص لبلده – أدى خدمته العسكرية وتدريبه فى سلاح الطيران البولندى . .

فكره أميل إلى الفكر الأوروبى الغربى . . وينعكس هذا فى تصرفاته الصغيرة ، كطريقته فى الكلام والملبس وكيفية تناول الطعام . .

لم يتزوج بعد . . فهو مشغول بدراساته المسائية العليا إلى جانب عمله فى إحدى شركات الطيران . :

تميل شخصيته إلى الانطواء والعزلة عن الناس : ولديه إحساس

باهت بيهوديته . . ويتابع المطبوعات والكتب والنشرات اليهودية من آن لآخر .

عندما بدأت أحداث يونية سنة ١٩٦٧ أحس بأن واجبه يحتم عليه أن يذهب لكي يشارك في الدفاع عن إسرائيل ضد الذين يريدون — كما صورت الدعاية — أن يقذفوا اليهود في البحر ، على نحو ما كان النازيون يريدون أن يفعلوا باليهود . . ولكن دون أية رغبة في الهجرة والحياة في إسرائيل ، فهو سعيد في بولندا مرتبط بالحياة فيها . . ويذهب للدفاع عن إسرائيل رغم معارضة والده الذي لا يهمه إلا أن يعيش حياة هادئة آمنة في بلده بولندا .

٦ — يوسف :

يهودي مصري . . هاجر من مصر عام ١٩٦٢ عقب صدور القوانين الاشتراكية في مصر ، والتي حرمت والده الغني من إحدى شركات النقل التي كان يمتلكها إذ أممتها . . فترك والده مصر إلى كندا ليبدأ تجارة جديدة . . وذهب يوسف الابن إلى إسرائيل — تاركا دراسته الجامعية — إذ كان في السنة الثانية في كلية طب الإسكندرية . . فقد هاجر من مصر وعمره تسع عشرة سنة — وهو الآن في الخامسة والعشرين من عمره . .

هو « ابن ذوات » مصري . . ولكنه حاقد على مصر رغم حنينه إليها في أعماقه . . وذهابه إلى إسرائيل ليس حبا في إسرائيل . . بل انتقاما لما حدث له في مصر . .

وهو — طالب الطب في مصر . . وابن أحد كبار رجال الأعمال بها — لم يجد له عملا في إسرائيل . . إلا ككاتب في أحد المحال التجارية ، أجره لايكاد يغطي تكاليف المطالب الأساسية في حياته . . وهو الذي اعتاد عندما كان يعيش في مصر حياة مليئة بألوان من الرفاهية . .

تحس دائما أنه يحن للحياة الناعمة ، الحب والملابس الفاخرة والغذاء الدسم ، وضيق حياته فى إسرائيل يجعله أكثر نقمة على مصر . . التى يعتبرها فى قرارة نفسه وطنه الحقيقى الذى اغتصب منه .

أدى خدمته العسكرية فى إسرائيل فى سلاح المدفعية . . وعندما أخذت إسرائيل تستعد لمعارك يونية سنة ١٩٦٧ . . دعى للخدمة فى قطاع سيناء . . وهو لا يذكر من هذه الحرب إلا رحلة طويلة مع وحدته عبر الصحراء ، حتى المركز الذى عينته له فى تجاه بور توفيق .

٧ — هارون :

يهودى فلسطينى . . من مواليد يافا سنة ١٩٤٢ ، أسرته من الأسر اليهودية الفلسطينية التى عاشت فى هذه البقعة من الأرض ، ولا تعرف لها أرضا أخرى ، ولذلك فقضية الحرب بالنسبة له قضية وطنية لا ترتبط فى أعماقها بقضية التعصب الصهيونى . .

أبوه — إلى جانب عمله فى التجارة فى يافا — يمتلك بيارة فى إحدى القرى القريبة منها ، ولكنه لا يقوم على زراعتها بنفسه لعدم ميله للزراعة ولانشغاله بعمله فى المدينة ، وتربطه بالتالى بأهالى القرية من العرب المسلمين والمسيحيين علاقات جوار ومودة قديمة ليست خالية تماما من الاستغلال . .

اكتفى هارون بدراسته الثانوية ، ثم بدأ يعاون والده فى تجارته وفى الإشراف على زراعته . . ولذلك نجده يدخل فى علاقات مع بعض الأسر العربية المقيمة بالقرية . . بل إن هذه العلاقات أخذت شكل مودة قوية ربطته بمريم ، إحدى بنات القرية فى مثل سنه ، وتوشك أن تكون حبا . .

يعانى تمزقا داخليا يحاول دائما ألا يعبر عنه . . حتى بينه وبين نفسه . . هو إحساسه بالغربة الشديدة عند لقائه باليهود الآخرين الوافدين من دول

أوربا أو أمريكا — ولو أنهم زملاؤه فى السلاح — ونجده يرتبط باليهود الآخرين حتى الوافدين من الخارج .. ولكن من دول عربية. . رغم الاختلاف معهم حول قضية الحرب التى يخوضونها جميعا . . تربطه بهم اللغة العربية التى يتحادثون بها أحيانا عندما تعييهم اللغة العبرية التى لا يستطيع هؤلاء اليهود الشرقيون التعامل بها فى يسر . .

وتجمعهم عادات فى المأكل والمشرب والمزاج . .كما تجمعهم بلوى واحدة . . هى نظرات الاستعلاء التى ينظر بها اليهود الغربيون إلى اليهود الشرقيين . .

لذلك نراه أقرب إلى الالتصاق بيوسف القادم من مصر . . وهما معا . . لا يتعاملان ببساطة ومودة مع دافيد سيكورسكى القادم من بولندة . . (والكل يعملون فى مركز واحد للعمليات) .

٨ — فيرجينيا :

يهودية أمريكية مجندة . . وتحتفظ مع ذلك بجنسيتها الأمريكية . . فى الرابعة والعشرين من عمرها تقريبا . .

فتاة مسترجلة — رغم جمالها وأنوثتها الطبيعية — ممتلئة بالتعصب العصبى .. وتعتقد أنها من حملة الرسالات الكبيرة فى العالم . . جان دارك أخرى . . ولكن يهودية فى هذه المرة . . تريد أن تخلص أبناء دينها من إحساس غامض بالاضطهاد — رغم أنها لا تعرف القليل أو الكثير عن النازية — وتجمعهم على قطعة من الأرض بعد أن تخلصها من جيل آخر من الهنود الحمر والمكسيكيين . . هم سكان فلسطين الأصليون . .

متأثرة بأفلام الغرب الأمريكية . . وبأفكار الهيبيز الجامحة . .

وهى من عائلة ثرية فى بوسطن بالولايات المتحدة . : أبوها من بين

مديرى إحدى شركات الفنادق الأمريكية الكبرى التى يمتد نشاطها إلى كثير من بلاد العالم الخارجية ، من بينها فندق فى القدس . . وهذا من بين الأسباب الكثيرة الأخرى التى جعلت بينها وبين أرض فلسطين علاقة خاصة . . فقد حضرت إليها من قبل أكثر من مرة فى رحلات عمل مع والدها . .

وتأثرا بأفكار والدها فإنها تتحسر على ضياع السلام فى الشرق الأوسط ، الذى كان يمكن أن يكون مصدرا للرخاء . . وتتحسر على غباء العرب فى عدم معايشتهم لإسرائيل فى سلام . . إذ بهذا وحده يمكن أن يتسع نطاق الأعمال فيمتد إلى الدول العربية الأخرى فيعم السلام ويعم الرخاء . .

فهى تتصور أنها بموقفها أيضا تريد أن تساعد المنطقة كلها على النهوض . .

ومع ذلك فهى فى أعماقها فتاة تضج بالأنوثة . . وتتجه أنوثتها بكليتها إلى دافيد سيكورسكى الطيار البولندى الوسيم الأعزب . . الأوروبى النظرة والتصرفات . . ولا تيأس من تجاهله لها وانشغاله بذاته . . ولا تكاد تلتفت إلى نظرات الملاحقة النهمة التى يصوبها لها يوسف المصرى الأصل . . بل إنها لا تتصور كيف يجسر على أن يفكر لحظة فيها .

٩ — أناتولى :

شاب سوفيتى يزيد عمره قليلا على الثلاثين . . يعمل مندوبا ومصورا سينمائيا فى مكتب وكالة نوفستى السوفيتية بالقاهرة . . وهى الوكالة التى تقوم بإنتاج ريبورتاجات تليفزيونية وسينمائية . .

بشوش الوجه . . جاد فى عمله . . كثير الحركة والتنقل . . وهى صفة اكتسبها من عمله الإخبارى . . إلى جانب صفة أخرى هى حب الاستطلاع الذى يشبه حب استطلاع الأطفال . . ينظر إلى الأشياء بانفعال وكأنه يرى الحياة لأول مرة . .

لم يتزوج بعد . .

تخرج فى أحد معاهد الدراسات الشرقية فى موسكو قبل التحاقه بالعمل الإخبارى ، لذلك نراه يجيد اللغة العربية باللهجة المصرية ، رغم أنه لم يكن قد أمضى أكثر من عام فى مصر عند بدء أحداث القصة . .

من خلال عمله الإخبارى عرف الدنيا . . على الأخص فى جانبها الملىء بالصراع . . فقد اشتغل مراسلا بعض الوقت فى فيتنام ، كما اشتغل فى كوبا وفى الكونجو .

له قدرة خارقة على سرعة التعامل مع الناس ، والدخول فى صداقات جديدة . .

ربطته ببطلنا محمود من قبل بداية قصتنا علاقة استلطاف متبادل . . حينما عاش فى السويس بعض الوقت ليسجل واحدا من تحقيقاته السينمائية . . وعندما ازداد تعارفهما توطدت العلاقة بينهما وأصبحت صداقة وطيدة . .

طبيعة عمله تتيح له فرصة التنقل والحركة فى كل مكان ، والتعرف على كثيرين من الخبراء السوفيت الذين يعملون مع القوات المسلحة أو فى بعض الأجهزة الاقتصادية . .

***

الخطوط العريضة للقصة

تبدأ أحداث قصتنا فى أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٦٦ بمدينة السويس . . ونحن فى أحد شوارعها المزدحمة بالناس والبضائع . . وثريا منهمكة بين المحال تشترى أشياء صغيرة من تلك التى تلزم لإقامة حفل عائلى فى المساء تحضره مجموعة محدودة من الأصدقاء . . ونعلم من خلال لقاءات بين ثريا وبعض صديقاتها فى الطريق أن ثريا ومحمود سيحتفلان مساء اليوم بعيد الميلاد الخامس لابنتهما وفاء . . وأن منزلهما فى المساء سيشهد احتفال الصغار بعيد الميلاد . . وفى الليل سيشهد حفل عشاء دعى إليه بعض الأصدقاء . ومن أجل هذا فقد طلبت ثريا إجازة فى هذا اليوم من مصنع التكرير الذى تعمل فيه كيمائية . .

أما زوجها محمود . . فنراه بين مجموعة من أصدقائه فى قارب بالقرب من شاطئ بعيد عن العمران ، هو شاطئ السلة فى بور توفيق فى رحلة صيد صغيرة . . وقد أقاموا على الشاطئ خيمة صغيرة . . فوردية عمله — فى مصنع التكرير أيضا حيث يعمل مهندسا ميكانيكيا — تبدأ فى الساعة الثالثة بعد الظهر . . ولو أنه ينوى أن يعتذر لرئيسه فى الساعة السادسة ليشترك فى عيد الميلاد . . وقد رتب مع أحد زملائه فى الرحلة وفى المصنع أن يتولى عمله فى بقية الوردية . . ولولا أنه كان قد تواعد مع مجموعة الأصدقاء على قضاء صبيحة هذا اليوم فى هذه النزهة البحرية — دون أن يذكر أنه يوم عيد ميلاد ابنته — لما كان قد ذهب معهم . . فزوجته كلفته بشراء بعض الأشياء اللازمة للحفل . . ولذلك فهو يستعجل الأصدقاء ليصل إلى السويس حوالى الثانية عشرة ظهرا لشراء ما كلف به . .

ويعود محمود فعلا مهرولا من رحلته ، وفى ملابس مضحكة تتناسب مع الرحلة ولكنها لا يمكن أن تتناسب مع وجوده فى المدينة وفى واحد من شوارعها الهامة . . ولكنه مضطر حيث لا بد أن يشترى احتياجات زوجته التى حددتها له فى قائمة طويلة . ولكن أين هى هذه القائمة ؟ . . لقد ضاعت فى رحلة الصباح وعليه إذن أن يعتمد على ذاكرته . .

ويدور بين محال الجزارة والخضروات والفاكهة ولعب الأطفال . . ويكتشف هنا أن لمحمود شعبية كبيرة فى المدينة . . ففى كل محل يدخله يرى صديقا يشوفى تعطيله بما يرويه له من حكايات . . أو على الأقل بكثرة السلامات والتحيات . .

ويزيد من تعطيله مروره على مقهى « المنظر الجميل » حيث يحلف عليه عم سلامة أن يلعبا معا عشرة طاولة تعبيرا منه عن شوقه للقائه . . وتدور مباراة الطاولة فعلا . . ويفاجأ الجميع بحضور « أنا تولى » وكان قد اتفق مع عم سلامة على تصويره فى لقطة داخل المقهى فى أثناء مباراة طاولة حامية . . يستخدمها فى أحد تحقيقاته المصورة عن الحياة فى المدينة الصغيرة . . ولكنه لم يأت للتصوير كما وعد . . بل أنه لا يحمل معه كاميرا . . وإنما يحمل أكداسا من البضائع يعاون بها إحدى مواطناته السوفيتيات العاملات فى المدينة . . وكان قد صادفها فى السوق قبيل حضوره وطلبت منه معاونتها . . ونراها واقفة منتظرة خارج المقهى . .

ونكتشف أن محمود يعرف « أنا تولى » من قبل ، عندما حضر إلى المصنع لتصويره فى أحد تحقيقاته أيضا . . ويدور حديث ضاحك بين محمود وأنا تولى وينصرفان معا . . فكل منهما مرتبط بالسوق . . ويودعان عم سلامة وبقية شلته رغم أصوات الاحتجاج .

ويبدأ الموكب الصغير مسيرته فى السوق المزدحمة .. «محمود» و«أناتولى»

و « ناتاشا » الروسـية البدينة التى عرفت من طول إقامتها فى السويس كيف تعامل بائعى الخضر والفاكهة وتفاصل وتجادل بمجموعة من الكلمات العربية العامية ، رغم وجود محمود وأنا تولى معها . . الأمر الذى أثار ضحكهم جميعا . . وهى معهم . . ولم يترك محمود أنا تولى إلا بعد أن حصل على وعد منه بالحضور إلى منزله للعشاء لمناسبة عيد ميلاد ابنته .

ويعود محمود إلى البيت لكى يكتشف — أو تكتشف ثريا — أنه اشترى بالضبط كل الأشياء التى لم يكن مكلفا بشرائها . . ! ولكنه يحول المعركة إلى حفل استقبال كبير لأميرة الليلة « وفاء » وقد حضرت لتوها من مدرستها : وتقف الزوجة مشدوهة مغيظة . . سعيدة بزوجها وابنتها رغم كل شىء . .

ويسرع محمود بالاستعداد ثم الذهاب إلى المصنع . .

* * *

فى داخل المصنع الكبير — مصنع التكرير بالسويس — نبحث عن محمود فى كل مكان يحتمل أن يكون موجودا به . . فقد حضرت زوجته أيضا إلى المصنع رغم أنه يوم عطلتها لتنجز عملا سريعا تذكرت أنه كان عليها الانتهاء منه بسرعة . . بعد أن تركت المربية فى البيت تقوم بالاستعداد للحفل ومعها طباخ استعارته من إحدى الصديقات . . وهى تريد أن تتحدث إلى محمود أولا لكى تطمئن إلى أنه لن ينسى موعد الحفل فى منزله . . وثانيا لكى تطلب منه اصطحابها والعودة معا إلى المنزل فى الساعة السادسة تماما .

كان محمود هو أيضا يريد الاطمئنان على عديد من الأشياء فى المصنع ، والتى تدخل فى اختصاصه كمهندس ميكانيكى ومسئول عن أعمال الصيانة . . وننتقل مع ثريا مسرعين من عنبر إلى عنبر . . ومن ورشة إلى أخرى — لنعلم أن محمود كان هنا ثم ذهب إلى هناك . . وهناك نعلم أنه منذ دقيقة فقط غادر المكان إلى ناحية أخرى بالمصنع . .

ونحس فى هذه الحولة السريعة بضخامة المصنع وإمكانياته الكبيرة وانشغال كل فرد فيه بعمله . . ونعرف أيضا أن محمود معروف من الجميع بل ومحبوب من الجميع . .

وأخيرا نعثر عليه فى بدلة العمل ملطخا بالشحم ، وهو يعمل مع العمال فى إصلاح آلة من الآلات الضخمة فى ورشة الصيانة . .

ويفاجأ محمود بثريا . . ويبادر بسؤالها عن وفاء . . وعندما يطمئن عليها وتبدأ ثريا فى شرح ما جاءت من أجله ترأد يعود إلى الاهتمام بآلته التى شغلته عنها وعن كل شىء آخر . .

فمحمود يعشق هذه الآلات . . ويحنو عليها . . ويعالج جروحها . . وكأن بينه وبينها علاقة إنسانية عميقة . .

وتدور الآلة المعطلة أخيرا وتعلو الابتسامة العريضة وجه محمود . . ويعود إلى إدراك الدنيا حوله . . وينظر محمود فى ساعته ويكتشف أنها قاربت السادسة . . فيهرول فى اتجاه معمل الأبحاث الكيمائية حيث لا بد تنتظره زوجته . .

ويدور بين غرف المعمل المختلفة . . لكى يرى فى النهاية زوجته أمام أنابيب الاختبار والأجهزة المختلفة وقد ارتدت البالطو الأبيض ووضعت منظارها على عينيها . . وفى تصرفاتها وأحاديثها مع زملائها جدية واهتمام يوشك أن يكون صرامة . . شىء مختلف تماما عن تلك الشخصية التى قابلناها فى السوق والبيت مليئة بالطيبة والبساطة . .

وتستمهل محمود بعض الوقت — رغم احتجاجه العصبى — لكى تنهى ما بيدها من عمل .

ويعودان إلى المنزل . . وقد اكتظ تماما بالأطفال وبعض الكبار والكل فى انتظار الوالدين .. اللذين يقابلان بمظاهرة مرحة من الاحتجاج والأشواق ..

فى بيت المهندس محمود كل شىء يوحى بالبهجة . . الصالة الكبيرة مزينة بالأوراق الزاهية المعلقة احتفالا بعيد ميلاد وفاء . . والصغار من كل سن يفعلون كل شىء . . يأكلون ويصخبون ويغنون ويلعبون ويتشاجرون ويتصالحون ، وثريا تروح وتجىء بينهم لا تعرف كيف تلبى كل الطلبات وترضى كل الأذواق . .

وفى حجرة متصلة بالبهو الخارجى مائدة كبيرة عامرة بكل ألوان الحلوى تتوسطها تورتة كبيرة من تورتات أعياد الميلاد وقد غرست فى وسطها خمس شمعات . .

وفى حجرة أخرى واسعة تكدس الكبار رجالا ونساء . . مجموعة الأصدقاء معظمهم آباء وأمهات الضيوف الصغار . . نراهم فى حلقات تنفصل ثم تتشابك ثم تعود إلى الانفصال . .

أكثر ما يلتف حوله المدعوون « عم سلامة » بتحدياته البطولية فى لعب الطاولة . . وذكريات شبابه وطفولته البعيدة . . وحديثه المفعم بالحب عن أولاده . . على الأخص « على » ابنه الأكبر الطالب بالمعهد الصناعى فى السويس ، يحكى عنه الحكايات الكثيرة عما يقوم به من أعمال بوصفه من التنظيم الشبابى فى السويس . . أعمال لا يوافق عليها الوالد كما يقول . . لأنها تشغله عن دراسته ، ولو أننا نكتشف بسهولة أنه فخور بهذا الابن وبهذه الأعمال . .

و « أنا تولى » بلهجته العربية الغريبة . . وذكرياته الكثيرة عن بلاد غريبة زارها . . والحديث ليس حديث سياسة . . فهو يحكى للسيدات عن رقة المرأة الفيتنامية رغم كل شىء ، وطريقتها فى طهو الأرز . . ويحكى عن الأزياء الجميلة الزاهية للمرأة فى الكونجو . . وللرجال عن الحياة الصاخبة

فى كوبا وأمريكا اللاتينية . . ويحاول أن يتذكر الكلمات العربية الغريبة التى تواجهه فى كل يوم . . وبعض الكلمات الروسية الكثيرة الاستعمال ومقابلها فى اللغة العربية . .

ومحمود مشغول عن كل هذا بالحركة الدائبة . . بين مدعويه . . يحتفى بهؤلاء . . ويروى نكتة هنا . . ويقدم طبقا هناك . . ولايكف عن معابثة زوجته أمام ضيوفه . .

وتحين اللحظة الحاسمة فى الحفل عندما يقف الجميع أطفالا وكبارا حول المائدة الكبيرة ينشدون لعيد ميلاد « وفاء » . وتطفأ الأنوار وتضاء الشموع . . لتحاول وفاء بمعاونة الجميع إطفاءها . . وتضاء الشموع الخمس على تورتة كبيرة . . كتبت عليها كل سنة وانت طيبة . . والتاريخ أكتوبر سنة ١٩٦٦ . .

وتسكن الضجة فجأة . . ويتحول الليل إلى نهار . . وتتسلل يد فى حركة بطيئة لكى تضيف شمعة سادسة والتاريخ يصبح أكتوبر سنة ١٩٦٧ . . المربية هى التى تضع الشمعة السادسة . . وهى تستعد عصر ذلك اليوم لحفل عيد الميلاد فى المساء . . حتى يكون حفلا كبيرا هذه المرة . . فلا زينات فى المنزل . . ولا شىء يوحى بجو الحفل . . ونلحظ على زجاج النوافذ اللاصقات المانعة لتطاير الزجاج واللون القاتم يغطى كل شىء . .

وثريا فى الشارع . . نفس الشارع القديم . . ولكن نصف منازله ومحاله مغلقة ، وكأن المدينة قد هجرها الكثيرون من سكانها ـ وآثار قنابل ومتفجرات وحرائق على كثير من المبانى . . والملابس الكاكية شبه العسكرية التى يرتديها الشباب تكاد تميز كل شىء . .

الجو ثقيل . . وثريا عندما تمر على المقهى الذى اعتاد أن يجلس عليه عم سلامة ، تلمحه فى الداخل وقد طوى صندوق الطاولة أمامه والمسبحة

الطويلة تتحرك بين أصابعه . . ومن حوله مجموعة صغيرة من بينهم « على » ابنه . . بملابسه الكاكية أيضا . . يهب « على » عندما يرى ثريا تحمل بعض المشتريات لكى يعاونها . . ويسير معها فى الطريق الطويل شبه الخالى . .

محمود فى المصنع يتحرك على عادته . . ولكن بغير حماس . .

أنا تولى يسجل أحاديث بالصوت والصورة ضمن تحقيقاته السينمائية . . نحس منها أن الجو ملىء بالتوتر . . عقب ضرب المدمرة الإسرائيلية « إيلات » وتوقع ضربة انتقامية من إسرائيل . . أغلب الظن أنها ستوجه إلى السويس . . إنه أول نصر عقب الهزيمة . . لقد رفع المعنويات قليلا . . ولكن مع فرحة النصر قدر عال من التوجس والحذر . .

ونرى وجه « وفاء » فى ضوء الشموع الست ـ تحاول أن تطفىء لهبها فى جو مصطنع من الحماس . .

وترتفع النيران عالية فى سماء السويس . . فقد ضربت المدافع الإسرائيلية بقنابلها الحارقة مصنع تكرير البترول واشتعلت النيران فى صهاريج البترول . . النار فى المصنع جامحة مجنونة تأكل كل شىء . .

وعمال المصنع ومهندسوه ورجال المطافئ يتحركون ببسالة وسط النيران الراعدة . .

وشباب المدينة يندفع نحو النار ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرواح الجرحى وبقايا المصنع . .

وتتراءى لمحمود ـ من بين النيران وحركته الدائبة الخارقة النشاط والبسالة فى الإطفاء والإنقاذ ـ صورة زوجته وطفلته . . ونرى الزوجة وقد فاض بها القلق على زوجها تندفع إلى الطريق تاركة طفلتها مع المربية فى أحد الخنادق ـ لتتجه إلى المصنع وتضيع فى الزحام . .

* * *

والقنابل تتساقط مندفعة من الجانب الآخر . . من الضفة الشرقية للقناة . :

وعلى هذا الجانب .. وفى جوف تبة عالية من أرض الصحراء : : ندخل صالة فسيحة — تندفع الضحكات وصرخات النصر والتهليل إلى خارجها — لنرى احتفالا للجنود الإسرائيليين فى نهاية هذا اليوم مما حققوه من نصر . .

ومن الماء المندفع من خراطيم الحريق على الضفة الغربية ، إلى الماء المندفع من زجاجات الصودا المحفوظة ، إلى كئوس الويسكى على الضفة الشرقية . . ومن صرخات الألم إلى صيحات الفرح . .

ويظهر عند باب « الميز » طيار عائد من العملية . . « دافيد » يتلقاه الجمع تلقى القائد المنتصر . . فهو الذى كان يوجه الضرب من طائرة هليكوبتر ، وهو آخر من غادر سماء المعركة . . سلم قيادته ما حصل عليه من صور للخسائر . . ثم حضر إلى الميز ليشترك فى احتفال النصر مع رفاق المعركة . .

وتختلط صيحات الرجال مع صرخات النساء من المجندات .

وتهدأ الضجة قليلا وينقسم الحاضرون إلى حلقات . .

فى إحداها نتعرف على « دافيد سيكورسكى » الطيار البولندى . وعلى « فرجينيا » المهاجرة الأمريكية الجنسية التى تبدى إعجابا بغير تحفظ نحو « دفيد » وهو مشغول بذاته . .

وفى حلقة أخرى قريبة من الأولى نتعرف على يوسف المصرى الأصل ، وهارون الفلسطينى المولد . . ونلمح جو الغربة بين المجموعتين . . كما نلمح نظرات الرغبة الخجولة الذليلة التى يوجهها يوسف إلى فرجينيا . .

على أن الجميع مخمورون بالنصر ، تتوج جمعهم نجمة إسرائيل المرسومة بحجم كبير على جدران الحائط . .

ونكتشف أن دافيد قد شرب كثيرا حتى كاد أن يفقد توازنه . . وضحكاته صاخبة .. عصبية . . تخفى وراءها شيئا ما ، أما هارون فلا يشرب

إلا عصير الفواكه المحفوظة . . وكأنه وجد نفسه وسط حفل لم يدع له .

* * *

في صباح اليوم التالى . . شهدت مدينة السويس لأول مرة في تاريخها حركة الخروج الكبير . . كل الطرق التى تؤدى إلى الخروج من المدينة اكتظت حتى آخرها بالنساء والأطفال والعجائز الذين رفضوا منذ بدأ قصف المدينة بمدافع العدو على الجانب الآخر من القناة — أن يغادروها . . أولا لأن هذه هى مدينتهم وفيها مصدر رزقهم الوحيد . . وثانيا لأنه ليس لهم مكان آخر فى الدنيا يذهبون إليه . .

ولكن عندما تصبح المسألة مسألة حياة أو موت . . يتغير الموقف . .

هكذا قال أنا تولى وهو يعلق على فيلمه الذى عرضه فيما بعد . . عن قصة الخروج الكبير فى تليفزيون موسكو .

ولم تكن هذه هى رغبة الناس الطبيعية وحدهم . . بل إنها كانت سياسة الحكومة التى كانت تريد أن تفوت على العدو غرضه من قصف المدنيين وإحداث أكبر الخسائر بينهم ، الأمر الذى قد يخلق حالة من الضيق بين جماهير المصريين والذى قد يشكل عنصرا ضاغطا على القيادة السياسية . .

وقد وضعت الحكومة كل ما تيسر لها — ولم يكن كثيرا — من التسهيلات التى تسهل عملية نقل كل أهالى السويس أو معظمهم فى أقل وقت ممكن . .

واستخدم الناس كل طريقة ممكنة للهرب من الجحيم . .

السير على الأقدام ، وعلى الظهور والرءوس كل ما استطاع الناس أن ينقلوه من أمتعتهم وأثاث بيوتهم وأشيائهم الصغيرة . .

عربات النقل « الكارو » التى تجرها الحمير . .

العربات التى تجر باليد . .

اللوريات . . السكك الحديدية . . التاكسيات . . السيارات الخاصة . . الدراجات . . الحيوانات . . وكل ما يمكن تصوره من وسائل النقل . .

والناس لايتحركون فى هدوء وصمت . . فمنظر النيران المشتعلة ما زالت فى معمل التكرير ، والدخان ، والقلق ، والقصص التى تتداولها الألسنة عن الضحايا الذين أكلهم الحريق . . كل هذا جعل المسيرة عصبية تختلط فيها صيحات الكبار وأوامرهم ومخاوفهم مع صرخات الصغار وبكاء البنات والنساء وعويلهن . .

وفجأة . . يضاف عنصر جديد إلى عناصر العذاب . .

فقد بدأت المدفعية الإسرائيلية تصب نيرانها على جموع الخارجين من المدينة بغير دقة فى التصويب . . فلم يكن المهم أن يقتل هذا أو ذاك . . وإنما المهم — من وجهة نظرهم — إحداث مزيد من الفوضى والاضطراب فى صفوف هذه الجماهير . . وهكذا لم يكن الضرب دقيقا . . ولا مركزا . . ولكنه كان يحدث أثره على كل حال . .

وبدأ الجرحى يتساقطون وسط جموع الزاحفين . . وبعض القتلى .

والرصاص والقنابل تأتى على فترات متقطعة من الجانب الآخر من القناة . . حيث يرتفع العلم الإسرائيلى . . من خلال فتحات الدشم ومن بعض التبات المرتفعة نسبيا ، والتى يستطيع من فيها مشاهدة كل ما يجرى فى السويس وفى طريق الخروج بمنظار ميدان عادى . .

ونلمح فى هذه الدشم — ولكن بملابس الميدان الكاملة هذه المرة — وجوها عرفناها من قبل . . فرجينيا وهارون ويوسف . .

هارون يراقب بمنظار الميدان . . فرجينيا متحفزة دائما . . تريد أن تنقض فى كل لحظة على الفريسة . . ولكن يوسف ولو أنه يشترك فى الضرب . . إلا أنه يمنعها من آن لآخر . . ويمسك بيدها . . إنه يذكرها دائما بأن الضرب

يجب أن يكون ضربا اقتصاديا . . ويحلو له مع ذلك أن يمسك بيدها مدعيا أنه يمنعها من الضرب وكل الذى يريده هو أن يمسك يدها . .

وعندما تصوب نيران مدفعها الصغير إلى هدف فى المدينة . . نراه يمنعها فى خجل ويقول لها إنه يعرف هذا المكان . . ومن خلال منظـار الميدان يتذكر أياما قضاها فى السويس فى رحلة مع مدرسته الثانوية أيام كان فى مصر . . وكانت الرحلة إلى جبل عتاقة . .

ويتذكر كيف خرج من مصر . . وترك فيها كل حياته التى أحب . . وكل ثروة والده التى أممت ، لكى يعيش فى إسرائيل وكأنه واحد من عمال التراحيل المصريين . . فيتناول مدفعه . . ويبدأ الضرب عنيفا فى البداية . . ولكن سرعان ما تفتر رغبته فى الضرب المتواصل . .

وفرجينيا لا تلتفت إليه كثيرا . . أحيانا تسأله — معبرة — إن كانت له ذكريات طيبة فى مصر . . ولكن لا يعنيها أن تستمع إلى الإجابة . . إنها تحلم بالوطن الإسرائيلى الكبير الذى ينشر الحضارة والعلم فى كل هذه المنطقة ، لولا غباء هؤلاء الذين يستحقون الضرب . . وتضرب فى المليان . .

ويتساقط القتلى والجرحى من جموع الخارجين من السويس . .

وينشط شباب السويس من لابسى الملابس الكاكية ، ومعظمهم من أعضاء منظمة الشباب ، فى إسعاف الجرحى والمصابين وإبعادهم عن الطريق الرئيسى ووضعهم على محفات بدائية يجرون بها فى اتجاه أقرب مكان آمن . .

وتلمح « على » ابن عم سلامة بين هؤلاء الشباب .. لعله أكثرهم حماسا ونشاطا وإقبالا على اقتحام الخطر . . لعله أن يكون أحد قادة هؤلاء الشباب . .

وترى عم سلامة نفسه فى هذا الحشد . . ولكنه على جانب الطريق . .

يراقب ويساعد أحيانا . . ويتتبع نشاط ابنه وفى قلبه قلق . . لقد صمم على عدم مغادرة المدينة ، وهو يعرف أنه قرار عاطفى ولكنه لا يعرف مكانا آخر يذهب إليه . . وهو يحب هذه المدينة ، ولأنه رجل صاحب مبادئ فهو لا يريد أن يترك المدينة فى محنتها . . إنه يعلم أنه فى يوم قريب لابد أن يرحل . . فالمدرسة أغلقت أبوابها ، ولكن أين يذهب ببناته الخمس ؟ . .

وأنا تولى يجرى والكاميرا معه فى كل مكان . . إنه يترك الكاميرا فى بعض الأحيان لكى يشترك مع الشباب الذين يعرفهم فى إسعاف هذا أو إنقاذ ذاك . . ثم يعود إلى عمله من جديد . . نراه مرة فى طريق الخروج ، ومرة فى المصنع والحريق ما يزال يشتعل والجهود المضنية تبذل لوقف انتشار الحريق . . ولكن انفجار الخزانات تأتى من هنا وهناك . . ويزيد عدد الضحايا . . ويئن الحديد تحت وطأة النار . . والعمال والمهندسون مع رجال الإطفاء يدا بيد . .

محمود أثبت أنه زعيم قائد فى هذه الموقعة . . بل لقد أثبت كذلك أنه مغامر يكاد أن يكون متهورا . . إنه الرجل الذى يشهد مصرع حبيبه الذى عشقه أحلى سنوات العمر . . ويود لو بذل حياته فى سبيل إنقاذه . .

ويتذكر محمود ثريا ويتصور أنها فى المخبأ الآن مع وفاء ، والحيرة والقلق عليه يملآن قلبيهما . . ولكنه لا يعرف أنها تركت وفاء فى رعاية بعض الصديقات من زميلاتها ونزلت إلى الشارع . . حيث الخروج الكبير . . لقد كادت أن تجن فى الليل من قلقها على محمود ، وأحست أنها سجينة قلقها ، وفكرت فى كل شىء . . وانتهى قرارها فى الصباح إلى النزول لمجرد أن تكون مع الناس بدلا من أن تجن وحدها . .

لمحت « على » ابن عم سلامة يحاول أن يضمد جراح أحد المصابين على جانب من الطريق ، وكان من الواضح أنه لا يعرف كيف يتصرف فى

جراحه التى تنزف . . وتذكر هى أنها خلال دراستها فى كلية العلوم وفى سنتها الأولى التى اشتركت فيها مع طلبة إعدادى طب . . تذكر أنها تعرف شيئا من الإسعافات الأولية .. ودخلت التجربة .. ونجحت .. وشجعها نجاحها على الاستمرار . . وخجلت من نفسها عندما رأت أناتولى يلتقط لها فيلما . . فرجته أن يكف ، فهى لا تريد أن تصبح كسيدات الجمعيات الخيرية اللاتى تتداول الصحف صورهن وهن يضمدن الجرحى أو يوزعن الإحسان . .

فجأة تنقلب الأرض وكأن شيئا انفجر من أعماقها . . ويغرق كل شىء فى ضباب كثيف من التراب والرمال .. وتصم الآذان فلا تسمع حتى الصرخات ، لقد انفجرت قنبلة بالقرب من المكان الذى يقفون فيه . .

جرحى وقتلى وأشلاء متطايرة . . والغبار والحروق تغطى الوجوه . . و« على » ملقى إلى جانب الطريق وقد فقد الحياة . . وتزحف نحوه ثريا من اتجاه . . ويزحف أناتولى من اتجاه آخر . . والجموع من حولهم شاردة . . الذى يجرى . . والذى يرقد على بطنه . . والذى يسرع فى محاولة للنجاة . .

ويأتى الوالد الشيخ . . وتتجمد الدموع فى عينيه . . إنه لا يبكى . . نراه يحرك شفتيه بسرعة وعصبية . . لعله يقرأ آيات من القرآن الكريم . . إنه غير متأكد من الموقف . . فالموت حوله فى كل مكان . . ولكنه لا يصدق أن ابنه هو يمكن أن يموت . . فيحاول أن يتأكد . . ولكن الحقيقة لا ترسب فى نفسه إلا بعد فوات قدر من الوقت . . ويردد كلمات عن الصبر . . وعن الشهداء . . وعن الجنة . . التى يلتقى فيها الشهداء . . وفجأة يرد على ذهنه خاطر فيكف عن التمتمة . . ويتخذ وجهه مظهر الجد والواقعية . . إن ولده لابد أن يدفن دفنا شرعيا ولا تترك جثته فى العراء . . لابد من الوصول به إلى مقابر الأسرة .. فى أحد أطراف المدينة .. لا أن يدفن على جانب الطريق، ولابد أن يصلى عليه . ..

واستحال الرجل إلى قائد هادئ الأعصاب فى مواجهة مشكلة لابد له من حلها . . فهذه الجموع الزاحفة فى اتجاه واحد لن تدع له سبيلا إلى العودة من نفس الطريق . . وكيف السبيل إلى حمل الشهيد . .

والذين من حوله . . ثريا وأناتولى . . وكثير من شباب المدينة وشيوخها من أصدقاء الابن والوالد . . وقفوا على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يطلب منهم حرفيا دون أى مناقشة أو اعتراض . .

المطلوب عربة يد لوضع الشهيد عليها . . واختيار طرق جانبية للوصول إلى المقابر . . وما أسرع ما استطاع الشباب الحصول على العربة وتحديد خط السير . .

وسار الموكب الحزين وراء الرجل وهو يدفع العربة أمامه . . ومن أمام . . مجموعة من الشباب تكافح فى سبيل إخلاء طريق للعربة وسط الزحام . . والرد على التساؤلات ، وثريا وأناتولى والآخرون من خلفه . .

وأخيرا . . وبعد عناء شديد على الطريق وصل الموكب إلى أقرب المقابر . . ويفاجأ الجميع بأنها أصبحت منطقة عسكرية ممنوع المرور فيها . . ويستخدم الرجل والذين معه كل وسيلة من أجل إقناع الجنود المرابطين هناك بضرورة المرور . . ويمرون بعد أن يدرك الجنود القصة ورغبة الوالد . . ويتصرف الجنود هنا على مسئوليتهم . . دون الرجوع إلى رؤسائهم . . ويصل الموكب إلى القبر . . وينشغل الجميع بفتحه . . يستخدمون كل شىء . . الأظافر والأيدى . . وكل ما وصلت إليه أيديهم . . ويفتح القبر . . ويقف الرجل ليصلى . . ويتم الدفن وإغلاق القبر . .

وهنا . . وأخيرا جدا . . يجلس الرجل منهارا على أول حجر . . يبكى بكاء مرا صامتا . . ومن حوله الجميع والدموع فى أعينهم . . والبعض يتطلع إلى السماء . . وكأنه يشهد الله على ما يحدث . .

* * *

أما نحن فنشاهد في السماء « دافيد سيكورسكي » في طائرته الهليوكبتر يشرف على أرض المعركة ويشاهد الجموع في خروجها الكبير . . ويصور الحرائق ومواقع إصابات المدفعية ويوجه الضرب . . ويصور كل شيء . .

ويقف طويلا عند منظر زحف الجموع على الطريق الطويل . . ويعود وينظر إلى هذا المنظر من جديد . . كأنه يذكره بشيء لا يستطيع تماما أن يتبينه . .

وننتقل إلى إحدى غرف العمليات الإسرائيلية لنشاهد الطيار وقد عاد من مهمته . . وقد تم طبع الصور التي التقطها للخروج الكبير . . وأخذ يستعرضها واحدة وراء واحدة . .

آه . . لقد تذكر الآن . . يا للكارثة . . ! . . إنها تكاد تكون صورة طبق الأصل للصور التي رآها في بولندا عشرات المرات وحدثه عنها والده أيام اكتساح النازي لمدن بولندا ومسيرة الجموع الهائلة من سكانها هربا من جحيم الحرائق . وطلبا لأي مأوى يعصمهم من النار والقنابل . . وقنابل العدو تحصد الجموع الهاربة على الطريق بمدافعه وطائراته .

الصور كثيرة متقابلة . . بعضها ثابت وبعضها يتحرك بعد ثبات . . وكأن التاريخ قد عاد حيا من جديد . .

وأحس بشيء يشبه الخجل والعار . . لم يستطع أن يعبر عنه . . ولكنه تذكر والده وهو يثنيه عن عزمه في الرحيل إلى إسرائيل . . وتذكر صباه المبكر وهو يحاول أن يبني بلاده من جديد بعد أن خربها النازيون وانهاروا في النهاية . .

ويخرج من الغرفة مطأطئ الرأس متجها إلى دورة المياه . . فقد شعر برغبة شديدة في القيء . .

المصنع وقد خمدت النيران . . ولم يبق منها إلا بقايا دخان وأبخرة متصاعدة هنا وهناك . . وقد دمرت النيران وعمليات الإنقاذ كل ما كان يعشقه محمود من أنواع الآلات والمعدات المختلفة . . نراه كئيبا حزينا يمر بينها . . يلتقط قطعة ملتوية من الحديد من هنا . . يتحسر ثم يرمى بها إلى الأرض . . ويستعرض معه مدى الدمار والخراب الذى لحق بالجزء الأكبر من معامل التكرير وخزاناته . .

ومع ذلك فى جانب آخر من المصنع حركة دائبة من النشاط . المديرون .. والمعاونون وبعض رجال الحكومة من القاهرة يتناقشون ويتباحثون فى عمليات الإصلاح أو نقل ما تبقى من المعامل إلى مكان آخر . . كانت الإسكندرية هى المكان الذى استقر الرأى على الانتقال إليه . .

لا . . لم يعد محمود يصلح لهذا العمل . . إن فى قلبه الآن ثورة مكبوتة لا تظهر على السطح . . إنه يحس أن شخصا ما اعتدى عليه هو شخصيا وسلبه شيئا عزيزا جدا لديه . . لابد له أن ينتقم . . إنه لا يمكن أبدا أن ينسى أصله الصعيدى . . لا المدينة ولا الجامعة ولا شىء من هذا يمكن أن يقتلع من أعماقه فكرة الثأر على الطريقة المصرية الصعيدية . .

والحل بسيط . . كان يخطر على باله منذ شهور . . ولكنه لم يكن يلتفت إليه كثيرا . . فالحرب من وجهة نظره لم تكن إلا مسئولية الجنود والضباط الذين كلفوا بهذا العمل . . أما هو فقد كان له عمل آخر يشغله ويمتلك عليه كل قلبه . . حتى عندما حدثت هزيمة الأيام الستة كان يحس أيامها أن مسئولية النصر تقع على عاتق الذين لم يحسنوا هذه الحرب . . وعليهم هم أن ينتقموا بالنصر لهزيمتهم . . أما الآن فانه يرى الموقف بالنسبة له شخصيا يختلف عن الشهور القليلة الماضية . . لقد أصبح هو طرفا فى المعركة .. أصيب غدرا . . وعليه أن يثأر من الذى غدر به . .

هذا الحل البسيط الذى خطر على باله هو التطوع فى القوات المسلحة . . وهو فى النهاية خبير — بشكل معقول — بصناعة الحرب . . فقد سبق له أن تطوع فى ضباط الاحتياط عقب تخرجه فى الجامعة مباشرة . . كان ذلك منذ أقل من عشر سنوات . . كان كل هدفه وقتها أن يتباهى ببدلته العسكرية . . ويرى من الداخل هذا العالم الغريب . . وأنهى تطوعه بعد عام ونصف العام بناء على طلب من معامل التكرير فقد كانت فى حاجة شديدة إلى مهندسين متخصصين فى الآلات .

لابد له أن يعود إلى الخدمة العسكرية على أى نحو . . صحيح أنه يسمع أن أسلحة الحرب قد اختلفت كثيرا وأنها تحتاج إلى تدريب من نوع جديد . . ولكنه فى النهاية مهندس ومهندس ميكانيكى . . وما أسهل عليه أن يدرك أسرار الأسلحة الحديدة لو أتيح له أى قدر من الوقت . .

وما أسهل أيضا أن يكلف — كمهندس — بعد تطوعه . . هذا ما قاله له أحد الخبراء بهذه الشئون — فيحتفظ برتبته العسكرية — ملازم أول . .

لم يكن وقع هذه الفكرة سهلا على « ثريا » . .

لقد تناقشا فى الأمر كثيرا .. ولكن لدهشته لم يجد موقف ثريا من العنف فى المعارضة على نحو ما كان يقدر . . ولكن كان موقفها من الحرب والتطوع حتى بعد أن قبلت قراره يختلف كثيرا عن موقفه . .

كانت ثريا من ناحية قد ذاقت مرارة الحرب وعرفت معنى أن يصاب الإنسان وأن يجرح وأن يحرق وأن يقتل . . وكانت ترفض أن يتعرض محمود لكل هذا فقد تركزت حياتها من حوله . . وهناك « وفاء » ماذا سيكون مصيرها لو حدث شىء مما يمكن أن يحدث . .

ولكنها من ناحية أخرى لا يمكن أن تنسى يوم الخروج الكبير . . وحركتها وسط الناس الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم . . وعرفت معنى أن يقدم

الإنسان جهده وحياته للآخرين من بنى وطنه . . ولا يمكن أن تنسى منظر استشهاد « على سلامة » بين يديها . .

إنها الآن تدرك معنى الوطن . . والدفاع عن الوطن . .

وتعود بها الذاكرة — وكانت تحاول أن تخفى هذه الذكرى دائما — إلى أخيها الضابط الذى اعتبر مفقودا فى حرب الأيام الستة . . ولا تدرى بعد إن كان حيا أو ميتا . . أسيرا أم عرف طريقه إلى الحرية ؟ . .

هل هذه الذكرى تدفعها إلى الاقتناع بقرار محمود . .

ربما . . وربما العكس أيضا . . فما أقسى أن يعيش الإنسان فى قلق من ظلام المجهول . .

ولكنها فى النهاية تعرف زوجها . . وتعرف عناده وإصراره إذا اقتنع بموقف ما . .

على أنها تكره أن يتطوع زوجها لمجرد الرغبة « الصعيدية » فى الثأر . .

فاذا كان ولابد من الدخول فى هذا المحظور . . فليكن من أجل قضية أكبر وأعرض من قضية الثأر الفردية . . على نحو ما يفكر هو . .

وعلى كل حال فقد انتهى الأمر . . وسار تماما على نحو ما رسم محمود . . فكلف الضابط المهندس محمود عبد السلام بالخدمة فى القطاع الجنوبى للجبهة . . وفى سلاح المدفعية . . وانتقلت ثريا — ومعها وفاء — للعمل بمعمل تكرير البترول فى الإسكندرية . .

* * *

لم تكن حياة الجندية سهلة على محمود فى الفترة الأولى . . فقد ووجه بلون من الحياة كانت الأعوام الطويلة قد باعدت بينه وبينها . . ولكنه سرعان ما تأقلم على حياته الجديدة . . فهو على كل حال قد خدم من قبل فى القوات المسلحة . . ثم إنه مهندس ميكانيكى . . وهو يتعامل هنا مع آلات

وإن اختلفت عن الآلات التى اعتاد أن يتعامل معها — إلا أنها فى النهاية آلات . . ثم إنه استطاع بسرعة أن يقيم جسرا من العلاقات الإنسانية الوطيدة ربطت بينه وبين بعض الذين يعمل معهم فى السلاح . .

فالرقيب « فتحى » أصبح معه كظله . . لا يكادان يفترقان . . صحيح أن هناك فارقا كبيرا فى الرتبة العسكرية . . ولكنه كان يعمل معه على نفس النوع من السلاح الذى أخذ يتدرب عليه . . وقد اكتشف فيه إنسانية عميقة ورغبة فى المعابثة وأخذ الأمور بيسر شديد اتفقت تماما مع طبعه . . أو ما عاد إليه من طبعه القديم . .

وهناك الخبير السوفيتى « فلاديمير » الذى يدربه على السلاح الجديد . . كم هو طيب ورائع هذا الرجل . .

فى البداية كان يتعامل معه بتحفظ بالغ . . فهو لم يكن مقتنعا أبدا بأن من حق أى إنسان غير مصرى أن يختلط نشاطه بنشاط القوات المسلحة المصرية . . وكان هناك حاجز اللغة يفصل بينهما . . ولم تكن بالتالى أى علاقة إنسانية قد ربطت بينهما . .

حتى ظهر العزيز « أناتولى » فى الصورة . . وهو يظهر دائما فى كل مكان وعلى غير توقع . . فقد كان يتابع نشاطه الإخبارى على خط النار ليقدم لمشاهدى تليفزيون موسكو صورة حية لنشاط الخبراء السوفييت فى القوات المسلحة المصرية كدليل جديد على التعاون العربى السوفييتى فى قضية البناء فى السلام . . والدفاع عن الأرض عندما يقوم العدوان . .

والتقى « أناتولى » بمحمود وفلاديمير . . وكان الصديق المشترك الذى جمع بينهما على المستوى الإنسانى . . كم ليلة قضوها فى المعسكر معا . . يأكلون على الطريقة المصرية ويسمرون ويضحكون ويتبادلون النكات . . ويتولى أناتولى مهمة الترجمة حتى زهق من قيامه بهذه المهمة واتفق معهما

على أن يتولى محمود تعليم فلاديمير العربية ويتولى الأخير تعليم محمود الروسية — فى أوقات فراغهما فيريحاه من مهمة الترجمة . التى لا يستطيع على الأقل الاستمرار فيها طويلا . . فهو الرجل الذى لابد أن يكون فى كل مكان . .

وأحس محمود — بغير نقاش مباشر فى السياسة — أنه يتعامل مع مجموعة من الناس تدافع مثله عن الأرض والحرية . . وتقاوم أطماع الذين يريدون أن يستولوا على الأرض والناس وكل شىء . .

وهكذا أحس بأن الذى بينهما ليس رفقة السلاح فقط . . وليس المودة الإنسانية أيضا . . بل والقضية المشتركة . . التى حلت فى وعيه محل الرغبة الفردية الساذجة فى الثأر .

* * *

كان البناء يتم فى هذه المرحلة فى مصر فى ثلاثة خطوط متوازية . . فنحن نرى — من خلال محمود وفتحى وفلاديمير — القوة العسكرية المصرية — تعيد بناء نفسها لتستعد للدفاع عن أرضها وتحريرها . .

ونرى فى نفس الوقت — ومن خلال أصدقاء وزملاء شاهدناهم فى منزل محمود وفى معمل البترول — القوة الاقتصادية المصرية تضمد جروحها وتعيد بناء ما خربته الحرب ، وتستمر فى عملية بناء اقتصادها فى الزراعة والصناعة . . ولا ننسى أبدا أن ثريا تشارك فى هذا الخط بالمشاركة فى بناء قسم البحوث الكيميائية لمعمل البترول الجديد — الذى أقيم فى الإسكندرية . . معتمدا على بعض ما أمكن إنقاذه من معامل السويس . .

أما الخط الثالث فهو إعادة بناء الشعب المصرى نفسه . . شبابه ونسائه ورجاله الذين لا يشاركون مباشرة فى نشاط القوات المسلحة . . فلجان الشباب تتطوع لأعمال الدفاع الشعبى ، ولجان التنظيم النسائى تتدرب على عمليات الإسعاف والتمريض وترعى أسر المجندين وأبناء الشهداء ،

ولجان الأحياء السكنية التابعة للاتحاد الاشتراكى تتولى عقد لقاءات سياسية للحديث عن الحرب وتحليل موقف العدو كنوع من التدريب السياسى . .

هذا كله هو ما قاله وصوره « أناتولى » فعلا فى برنامج تليفزيونى أعده فى مصر وأذيع من تليفزيون موسكو . . ولاقى تقديرا كبيرا من جمهور المشاهدين فى الاتحاد السوفييتى الذين شاهدوا البرنامج فى بيوتهم . . وفى نوادى العمال فى المصانع . . وفى المزارع . . التعاونية . . وتضمن البرنامج عرضا سريعا لقطاع عريض من الإنشاءات التى يقوم بها المصريون فى الميدان الاقتصادى — يساندهم الخبراء السوفييت فى بعضها . . من أول السد العالى . . إلى مصنع الدرفلة . . إلى عديد من المشروعات الأخرى فى مجال الصناعة على الأخص . .

* * *

وإلى جانب هذه الخطوط المتوازية الثلاثة من النشاط على الجانب المصرى ، نرى خطا آخر يجرى على الجانب الشرقى للقناة . . فقد أدرك العدو أنه لم يستطع أن ينال من معنويات الشعب المصرى بعد ضربه لمعامل تكرير البترول فى السويس . . فاستمر فى أعمال المدفعية يوجهها من الجانب الشرقى للقناة على مدينة السويس وعلى الإسماعيلية وعلى بقية مدن القناة . .

يكفى أن توجه المدافع بدون أى تنشين ، وأن تطلق بعض طلقات بمعدل عال ثم تختبئ خوفا من رد المدفعية المصرية . . ولكن هذه الطلقات لابد وأن تحدث خسائر ، إن لم تكن فى الأفراد — فالغالبية العظمى منهم هجرت وغادرت هذه المدن والمناطق — فهى تستطيع أن تحدث خسائر فادحة فى المبانى أو المساجد أو الكنائس أو أى شىء آخر . .

لم تكن فرجينيا ولا يوسف ولا هارون — وهم جميعا يعملون فى وحدات المدفعية الإسرائيلية المواجهة للسويس . . فى حاجة إلى بذل جهد

كبير فى الضرب . . كان كل شىء يجرى من جانبهم بمنتهى الاستخفاف . . فالضرب بالنسبة لهم « كله مكسب » كما اعتادوا أن يقولوا . . ولم يكن دافيد فى حاجة إلى التحليق بطائرته لإحكام الضرب وتوجيه المدفعية الإسرائيلية إلى أهداف معينة . . فكل شىء وأى شىء يمكن أن يكون هدفا .

لم تعد الأعصاب مشدودة . . وكان فى الإمكان قضاء ساعات من الراحة تستغل فى السباحة والصيد على شاطئ لسان بور توفيق . . — المواجه لمدينة السويس — نفس المنطقة التى رأينا فيها محمود أول ما رأيناه فى نزهة بحرية مع أصدقائه — وكل الخلاف أن العلم الإسرائيلى أصبح يرفرف على المنطقة فى هذه المرة . .

محمود يستطيع أن يرى العلم الإسرائيلى ويرى الجنود الإسرائيليين على البعد من خلال منظار الميدان . . ويمتقع وجهه ويحس بتقلص فظيع فى كل عضلة من عضلات جسمه . . فهذا هو مكانه الحبيب الذى اعتاد أن يقضى فيه أوقات فراغه . . عندما كانت هذه الأرض ما زالت ملكا لأصحابها . . له هو شخصيا ولكل أصدقائه وزملائه فى السويس . .

كان ساعتها يمسك بتلابيب صديقه — الرقيب فتحى — بعد أن توطدت بينهما العلاقة . . وفى غفلة من أنظار بقية أفراد المجموعة . . يحاول بغير إيذاء أن يفرغ فيه طاقته من الغيظ والضيق . . ولكن فتحى كان يستطيع دائما أن يحول المسألة — على السطح — إلى مجموعة من « التريقة » والسخرية بجنود إسرائيل . . والقلب قد امتلأ من الداخل عزما وصلابة . . وأملا راسخا فى المستقبل . .

وهارون — على الجانب الآخر — يجدها مناسبة ليستأذن فى إجازة قصيرة يقضيها فى قريته بالقرب من يافا . . فلم تعد الأعصاب هناك مشدودة . . ولم يكن يسعده كثيرا أن يرى قصة الحب الخائب تتسكع بين صديقه

يوسف وفرجينيا . . بسبب إهمالها إياه ، ولا قصة الحب الخائب الأخرى تتسكع هي أيضا بين فرجينيا ودافيد بسبب إهماله إياها . . وكان يحس في قلبه حنينا للعودة إلى قريته ورؤية أهله . . ترى هل هم أهله فقط الذين يريد أن يراهم أو أيضا جيرانه . . ولماذا لايقولها ويعترف بها صراحة بينه وبين نفسه . . فيقول إنه يريد أن يرى مريم ؟ . .

لم تكن مريم في بيتها عندما طرق هارون الباب . . كان يريد أن يبلغ والدها رسالة من والده تتعلق بالعمل في الأرض . . ولم يكن الأمر هاما . . ولا كان هو مكلفا به فعلا ، ولكنه وجد بقية أفراد الأسرة . . والد عجوز وصبية صغيرة لم تتجاوز العاشرة من عمرها . . لم يرفضه الوالد . . ولكن كان ترحيبه به في حدود المجاملات المتعارف عليها اجتماعيا بغير حفاوة وبغير شوق . . وبغير أي سؤال عن أخباره . . لم يكن العجوز ينكر صلة الجوار القديمة بينهما . . ولا هو ينكر صلة العمل المشترك . . ولكن شيئا في صدره يمنعه من هضم وجود هذا الفتى هارون بملابسه العسكرية في منزله . .

على كل حال لم تكن مريم في المنزل . . خرجت في محاولة للحصول على إذن من السلطات لها ولأختها الصغيرة للذهاب إلى الضفة الشرقية للأردن لزيارة خالتها وأبنائها وبناتها . . وكانوا قد خرجوا من يافا أيام المسيرة الكبرى إلى خارج الأرض التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ واستقروا في قرية بالقرب من طبرية .. ثم عادوا وخرجوا في مسيرة أخرى عام ١٩٦٧حيث استقر بهم المقام في أحد معسكرات اللاجئين في الضفة الشرقية للأردن . .

كانت مريم قد فقدت والدتها منذ زمان مضى . . عقب ولادة أختها الصغرى مباشرة ، وكانت تحس دائما بأنها في حاجة إلى احتضان خالتها بين كل آن وآخر . . ولم يكن هذا يتحقق لها إلا كل بضع سنوات

. . كما كانت تحس دفئا وأمنا وأملا فى لقاء الشباب من أبناء خالتها الذين بقوا فى الأردن — فقد هاجر اثنان منهما . . واحد إلى انجلترا والثانى إلى الكويت سعيا وراء الرزق والعلم . .

وطرأت فكرة على ذهن العجوز . . إن هارون من رجال السلطة . . أليس جنديا فى الجيش الإسرائيلى ؟ . . هو إذن من رجال الدولة . . ولابد أن له كلمة مسموعة لدى السلطات . . فلماذا لا يوسطه فى أمر الحصول على التصريح ؟ . .

ويتردد هارون كثيرا . . فلا وقت لديه يسمح بالمرور على المكاتب . . إنه يعرف كم يكلف هذا الأمر من التردد على عشرات المكاتب وعشرات الموظفين ومئات الأسئلة . . ثم . . كيف يواجه نظرات الشك والتهمة التى يمكن أن توجه إليه فى سعيه للحصول على هذا التصريح . .

ولكن مريم . . ألا تستحق فى النهاية أن يبذل من أجلها شيئا . . يحاول على الأقل . .

وفى الصباح نرى هارون ومريم يطرقان أبوابا كثيرة . . ويواجهان الأسئلة . . ويتصبب العرق . . ويواجهان النظرات والإجراءات . .

كانت ثريا تحتفل بعيد ميلاد وفاء السابع فى أكتوبر من عام ١٩٦٨ فى الإسكندرية . . وحرص محمود — وكان مغه فتحى هذه المرة — على أن يكون فى الإسكندرية فى ذلك اليوم . . ولكن لفترة قصيرة جدا . . عاد بعدها إلى موقعه فى الميدان فلم تكن حالة الهدوء النسبى تسمح باجازة طويلة . .

ولكن اللقاء كان حارا مفعما على كل حال . . وكانت العيون تقول

أشياء كثيرة أبلغ مما تقوله الكلمات .. وعرف كل من أمر صاحبه الكثير . . وكانت الأسئلة لا تنتهي . . ولاحظ كل منهما أن حالة الآخر المعنوية قد ارتفعت كثيرا . . فكل منهما يعمل في ميدان ويبني شيئا ما للمستقبل . . وعادت الروح المرحة الطروب إلى محمود . . ولو أنه كان ما زال يخفي رغبته الدفينة في الانتقام والثأر . . ولكن بغير انفعال سطحي . .

ويعود محمود وفتحي إلى الجبهة ليشتركا في معركة المدفعية التي كانت قد بدأت منذ فترة قصيرة لتحطيم خط « بارليف » . .

فقد كانت المدفعية المصرية قد وصلت إلى مستوى من الكفاية يسمح لها بالرد على مدفعية العدو المتمركزة شرق القناة مباشرة . . تمطر المدن بقنابلها الطائشة . . وأنزلت بالعدو ضربتين قاصمتين في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٨ وآخر أكتوبر سنة ١٩٦٨ . .

فبدأت القوات على الجانب الآخر في عمل تحصينات دفاعية قوية . . الهدف منها توفير وقاية لأفرادها . . أي أنها تتيح للجنود أن يختفوا تحت الأرض في مجموعة من الدشم والسواتر . . ولا داعي للرد أو التعرض للمدفعية المصرية . . على أساس أن يتم الرد ضد المدن في الإسماعيلية والسويس من وقت لآخر . . وجهز بعض الدشم لاستخدام دباباته . . وهو ما أطلق عليه اسم « خط بارليف » . .

في سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأت مدافع مصر على طول القناة تدمر خط بارليف . . وفي نهاية السنة نفسها كان قد تحطم أكثر من ٦٠ ٪ من هذا الخط . . فانسحبت القوات الإسرائيلية الرئيسية عن الضفة الشرقية للقناة . . وجهزت لها مواقع دفاعية خارج مدى النيران المصرية . . أي على بعد يتراوح من ١٥ إلى ٢٠ كيلو مترا شرق خط بارليف . . وذلك فيما عدا بعض نقط قليلة بسبب تضاريس الأرض .

وكان من أهم هذه النقط لسان بور توفيق . . فقد كانت الأرض حوله توفر لمدافع ودبابات إسرائيل بعض هذه التضاريس والظروف الأرضية التى يمكن أن تقبع خلفها أسلحة كالمدافع والدبابات وقواعد إطلاق الصواريخ . . لتستمر فى ضرب مدينة السويس ضربا مباشرا دون أن تتمكن المدفعية المصرية من مراقبتها وتدميرها . .

كان الموقف بالنسبة لمحمود عصيبا متأزما . . فهو ما زال يعمل بإحدى وحدات المدفعية فى السويس . . والموقف حوله جامد وكأنه يسير فى طريق مسدود . . فكل الأفراد من حوله يبذلون أقصى جهدهم لضرب مواقع مدفعية العدو فى بور توفيق . . ومرابض دباباته وقاذفات صواريخه . . ويبذلون غاية الجهد لإحكام الرماية نحو أهدافهم . . وكانت مواقع العدو تسكت عندما يبدأ الضرب من الجانب المصرى . . ولكنها سرعان ما تعود إلى الضرب وكأن لم يصبها شىء بالمرة . .

فقد كان الإسرائيليون ساعة الضرب ينزلون إلى مخابئهم ودشمهم وتحت دباباتهم . . وكانت هذه المواقع حصينة خلف الهضاب الأرضية والسواتر الترابية المرتفعة التى تخفيها تماما . . ثم يعودون إلى العمل وفق خطط تستهدف أولويات معينة على المبانى المرئية فى مدينة السويس . . وتعتمد على تقارير الإصابات التى تصلها من التصوير عن طريق الهليوكبتر لخسائر الضربات السابقة . .

وبعد كل غارة للمدفعية الإسرائيلية ترتفع قائمة الضحايا من أهالى السويس الذين أصروا على البقاء . . ولم يخرجوا بين من خرجوا من سكانها . . ويتضاءل أمل الذين هاجروا من مدينتهم فى إمكان العودة إليها فى المستقبل القريب . .

كان هؤلاء المهاجرون قد توزعوا بين عديد من القرى والمدن المصرية

وفقا لظروف كل عائلة مهاجرة . . ووفقا لما تستطيع السلطات المحلية المصرية توفيره من أماكن للمهجرين . .

عم سلامة كان من بين سعداء الحظ الذين أمكنهم أن يجدوا لهم مكانا قريبا من السويس إلى حد ما . . والحقيقة أنه لم يسع إلى ذلك ولكنه حدث على كل حال . . فقد نقل من وظيفته فى السويس كناظر لإحدى مدارسها الابتدائية — بعد أن أغلقت مدارس السويس أبوابها — وأصبح ناظرا لإحدى المدارس الابتدائية فى قرية من قرى محافظة الدقهلية . . على أطراف هذه المحافظة من ناحية الشرق . . حتى إنها لا تبعد عن قناة السويس حيث يدور التلاحم — بأكثر من عشرين كيلو مترا . .ولم تكن القرية غنية . . فهى على أطراف الأرض الصالحة للزراعة . . ولم يكن حجمها يسمح لها بتلقى المزيد من السكان . .

غير أنها كانت من أقرب القرى إلى مدن القناة . . وكان الكثيرون من الذين اضطروا إلى ترك بيوتهم فى هذه المدن لا يريدون أن يذهبوا بعيدا بعيدا . . كان لديهم الإحساس العميق دائما أنهم عائدون . . ولذلك فقد كانت قلوبهم تدفعهم إلى البقاء فى أقرب الأماكن إلى مدنهم التى يحبونها . .

كان هذا على كل حال هو التحليل الذى قدمه « أناتولى » فى تحقيقه السينمائى الذى أعده لتليفزيون موسكو عن مشاكل المهجرين فى مصر . . وعرض فيه عرضا سريعا لألوان الحياة المختلفة التى يحياها هؤلاء الذين اضطرتهم قنابل إسرائيل إلى ترك مدنهم وأعمالهم وبيوتهم . . وضربوا فى الأرض . . يحاولون أن يشقوا طريقا لهم فى الحياة .. معتمدين على معونات محدودة تقدمها لهم السلطات واللجان الشعبية . .

عم سلامة أحال مدرسته إلى منتدى سياسى للكبار مساء . . وأدخل ضمن دروس المدرسة مقررات من وضعه يلقنها للصغار عن إسرائيل

وحرب التحرير . . ويركز على الشهداء الذين يسقطون دفاعا عن أرض بلادهم . . ولهم الجنة التى وعد الله بها شهداءه . .

وعندما كانت المدرسة تخلو من الصغار ومن الكبار . . كان يؤثر أن يقضى بقية يومه مع بناته الخمس . . فقد كان شرف البنات قضية تحتل جزءا كبيرا من تفكيره . . ومع هذا اللون الخطير المعقد من الحياة التى اضطرت إليها أسر المهجرين . . أصبحت القضية مشكلة بل كادت أن تكون أزمة . .

والمصيبة أن كبرى بناته — وقد أصبحت الآن فى الثامنة عشرة من عمرها — أخذت على عاتقها تعليم المهجرات حرفة خياطة الملابس . . وقد كان من بين المعاونات التى تقدمها السلطات لأسر المهجرين توزيع ماكينات خياطة عليهم للاستعانة بالعمل عليها على سد بعض مطالب الحياة .

وكان هذا يضطرها أن تقضى كثيرا من ساعات يومها فى المرور على هذه الأسر لتعليم بناتها الخياطة . . الأمر الذى كان يزيد من هم عم سلامة . .

والمصيبة الأكبر أنه لم يكن يملك أن يعترض . . فقد كانت الفكرة فكرة ثريا العزيزة زوجة العزيز محمود . . عندما حضرت يوما لزيارتهم فى القرية مندوبة عن قيادة التنظيم النسائى . . وكان حبه لثريا ومحمود يمنعه من الاعتراض . . وكانت الابنة تذكر دائما والدها بأخيها الذى ذهب وهو يؤدى واجبه فى الدفاع عن الآخرين . .

وعندما شكا الأمر لأناتولى — فى أثناء إقامته القصيرة فى القرية يصور تحقيقه الفيلمى — وكان يريد أن يرى فيه نصيرا لاعتراضه بعد أن رأى ما رأى من حياة المهجرين ووقوع الكثيرات منهن فى الخطأ نتيجة تعقد الحياة الجديدة بالنسبة لهم . . وجده على العكس مما توقع يناصر الفكرة ويدافع عنها . . وهو بينه وبين نفسه يكن لأناتولى حبا عميقا . . إنه لا ينسى

له أبدا أنه عاونه يوم كان لابد أن يدفن ابنه فى زحمة الخروج الكبير من السويس . . ثم إنه — وهو الأجنبى عن هذه الأرض — يبذل كل هذا الجهد للدفاع عنها ومناصرة قضيتها . . كأنه واحد من أهلها .

* * *

فى الأيام الأولى من شهر يوليو عام ١٩٦٩ أحس محمود أن شيئا غير عادى يجرى من حوله . . حدثت تنقلات لبعض الأفراد . . وأصبح الضرب يجرى فى كل يوم حسب الأوامر . . لفترات محدودة ولأهداف محددة تماما . . ولم يكن يعرف السر . . ومنعته أخلاقياته العسكرية حتى من أن يحاول أن يعرف . . رغم أن نفسه كانت تواقة إلى التعلق بأى شىء يوحى بالأمل فى المستقبل . . فها هى الحرب قد مضى عليها أكثر من عامين . :

عامان والعلم الإسرائيلى يرفرف أمامه على شاطئ لسان بور توفيق . . الذى يعرفه جيدا . وكأنه خنجر يصوب إلى صدره ، وكل الجهد الذى يبذل فى سبيل زحزحة الملاعين من مواقعهم فيه يذهب هباء . . ومدافعهم وصواريخهم من هذا الموقع لا تكف عن ضرب المدينة شارعا شارعا . . نفس الموقع الذى أحرق مصنعه الذى ربط به حياته ومستقبله . .

وزاد من ضيقه فى هذه الأيام أنه لم يكن يستطيع أن يبوح بخواطره لأحد . . فقد كان صديقه الرقيب فتحى من بين الأفراد الذين صدرت إليهم الأوامر بالانتقال إلى موقع آخر لم يعرفه أحد . .

فى اليوم العاشر من شهر يوليو صدرت إليه الأوامر بالضرب المركز على مواقع العدو على لسان بور توفيق . . على الجانبين أولا . . ثم على عرض اللسان بعد ذلك . . وأن يبدأ الضرب فى دقيقة معينة ثم يتوقف فى دقيقة أخرى محددة من مساء نفس اليوم ، مع التحذير من أى خطأ فى التنشين أو التوقيت البالغ فى الدقة . .

وكانت الجبهة المصرية على طول خط المواجهة تضرب فى نفس الفترة تقريبا حسب ما تلقاه من معلومات . .

وفى الساعات الأولى من فجر اليوم التالى . . كانت الجبهة كلها قد عرفت الخبر ، وتلقاه محمود وهو لا يعرف هل يطير ويغنى من الفرح ، أم يبكى ويضرب رأسه فى الحائط . .

فقد عبرت قوة مصرية — يصل عددها إلى حوالى مائتى رجل — قناة السويس واشتبكت فى قتال متلاحم مع القوة الإسرائيلية المتحصنة بمواقع رأس السلة ولسان بور توفيق وحطمت الموقع وأسكتته إلى الأبد . . وأنزلت به خسائر فادحة فى المعدات والأرواح . . وعادت القوة المصرية بعد أن فقدت عددا محدودا جدا من الشهداء وبعض الجرحى . . ولم تكن عمليات المدفعية فى تلك الأيام إلا للتمويه على العدو . . ولم يكن الضرب بالمدفعية فى اليوم العاشر من يوليو إلا للتمويه فى البداية . . ثم لحماية القوة قبيل عملية الاقتحام . .

أحد الجرحى كان الرقيب فتحى . . أصيب بإحدى الدانات التى كانت تقذف بها المدفعية المصرية لإجبار العدو على النزول فى خنادقه والاحتماء بلشمه قبيل بدء الغارة . . ولم يكن الجرح خطيرا ولكنه أصر على المضى فى مهمته بعد أن ضمدت جراحه فى أثناء العملية . .

إذن فقد فعلها فتحى . . وذهب هو ومن معه ليقوموا بالعملية التى استمر محمود يحلم بها على مدى عامين كاملين ثأرا من الذين أحرقوا مصنعه . . وحطموا آلاته وأجهزته التى أحبها ، وشتتوا شمل أسرته . . وخربوا المدينة التى ارتبط بأهلها وبكل شارع من شوارعها . .

أما نصيبه هو من العملية . . فمجرد حماية الذين يقومون بالعمل الفعلى . . هل يمكن أن يشفى هذا غليله للثأر الذى حلم به . . ؟

الآخرون — والصديق فتحي بينهم — تلاحموا مع الإسرائيليين . . واجهوهم رجلا لرجل . . بالرشاشات والقنابل اليدوية . . وقذائف اختراق الدبابات وبالخناجر والأيدى . . وانتقموا . . وعادوا مع النصر . .

أما هو فماذا فعل . . ؟

مجرد الحماية من بعيد . . بطلقات المدفعية البعيدة المدى . .

وهنا تذكر شيئا مفزعا . .

أليس من المحتمل أن تكون قذيفة المدفعية المصرية التى أصابت فتحى فى أثناء اشتراكه فى الإغارة . . هى قذيفة من مدفعه هو ؟ . . هل يعقل هذا ؟

وهل يمكن أن يكون هذا هو نصيبه من المعركة . . ؟

* * *

وضحكت ثريا كثيرا عندما ذكر لها هذا الخاطر فى اليومين التاليين لهذه المعركة — وكان قد حصل على إجازة قصيرة جدا لا تكاد تصل إلى يوم كامل . .

ذكرته أنه ما زال يحارب كفلاح من الصعيد . . يريد الأخذ بالثأر . . ويعتبر القضية قضية شخصية . . بعد كل هذا الذى حدث ويحدث ، وبعد كل المناقشات التى اشترك فيها وتحدث فيها كثيرا عن القضية الكبرى . . قضية تحرير الوطن من غاصبيه . .

وذكرته بأن مصر كلها بدأت لأول مرة بعد الهزيمة تتنفس هواء جديدا . . فيه من الأمل أضعاف ما فيه من المرارة . .

وضحكت كثيرا من غيظه من فتحى عندما روى له تفاصيل المعركة وهو يعيره بأنه هو الذى خطا على شاطئ لسان بور توفيق محاربا . . وكل ذكريات محمود عن هذا الشاطئ عند ما زاره لاعبا صائدا للسمك الصغير . .

* * *

وكانت فرجينيا تضحك هى الأخرى كثيرا وهى راقدة بأحد مستشفيات الميدان الإسرائيلية ضحكا مسرورا هستيريا صاخبا — وهى تروى لدافيد الذى جاء لزيارتها — كيف أن إصابتها كانت نتيجة غوصها فى أكوام الطماطم والبيض وعلب المأكولات المحفوظة بعد أن تحطمت سيارة التموين التى كانت تقودها بالقرب من الموقع نتيجة إصابة قريبة مباشرة ، وكيف أنها كانت تتمنى أن يأكل المصريون هذه الطماطم بدلا من بعثرتها على أرض الصحراء . .

وروت له كيف أن يوسف تركها فى العراء تئن وسط المعركة وجرى يبحث له فى الظلام عن ساتر يختفى وراءه ، بعد أن هاجم المصريون الدشمة التى كان يحتمى بها وفتكوا بزملائه . . تركها رغم هذا الحب والإعجاب الذى يدعيه . . وهى تركته ونسيته أن تتابع أخباره إن كان قد خرج من المعركة حيا أو ميتا . .

ولم يضحك دافيد لضحكها . . كان قد وصل إلى حالة مرهقة من اللامبالاة والاكتفاء بالحركة الميكانيكية المأمورة . . وترك نفسه للمصير الذى وجد نفسه فى داخله . .

إنه لم يعد يفهم ما هى القضية التى ترك بلاده من أجلها . .

فاذا كانت هى تأمين اليهود فى وطن بعيد عن احتمالات اضطهاد نازى جديد ، فأين هو هذا الأمان ؟ . . وهو يحارب مع الآخرين بعد النصر العسكرى الذى شارك فيه حربا طويلة شاقة كأنها لن تنتهى أبدا . .

وأيهما آمن لليهودى . . أن يعيش فى بولندا مواطنا بولنديا كما رأى والده وكل الذين عرفهم . . وكانوا موضع احترام كل من حولهم . . أم فى هذا الذى يقال إنه وطن آمن . . وكل من حوله أعداء . . وكل ما فى داخله أعداء . . ولا أمن من داخله ولا من حوله ؟

وهذه النازية التي يخاف اليهود من أن تعود . . إنه لم يقابلها إلا مرتين . الأولى من خلال ذكريات والده . . والثانية من خلال ما يقوم به هو شخصيا والذين معه . . مطابقا لهذه الذكريات القديمة . .

أيعقل أن تكون الضحية القديمة . . وريثة للجاني القديم ؟ . .

ولكن هذا هو ما يشعر أنه يحدث فعلا . . ومع ذلك أين المفر . . وهو غائص إلى أذنيه في المعركة . . معركة المصير ؟ . .

وهو لا يناقش فرجينيا في هذا . . فهو يعلم أنه لا فائدة من مناقشتها في شيء يختلف عن اقتناعها . . وهو لا يطمئن إلى الإفصاح عن وجهة نظر كهذه . . وهو يعلم أنه من القوات الإسرائيلية المحاربة . . وهو زاهد بعد هذا وذاك في الدخول في أى لون من ألوان المناقشة . . وإنما هى صور تتراءى له وتمر بخاطره في سرعة وتتابع وهو يستمع إلى ثرثرة فرجينيا . . التي لا تريد أن تنتهي .. وكيف له أن يناقشها بحرية أو يفضي إليها بخواطره .. وهي التي تتشفى الآن في هارون إذ حكم عليه بالسجن بعد أن حامت حوله الشكوك نتيجة قصته مع مريم التي أولت كل تأويل . .

من يدرى ؟ . . ربما أن لفرجينيا يدا في هذا التأويل الذى أدى إلى الكثير . .

* * *

أما خواطر أناتولى . . فكانت تسير في خط مختلف تماما . . أو لعله متراز . . وهو يجلس في غرفة المونتاج المظلمة يتطلع إلى قصاصات الأفلام التي صورها لعملية الإغارة على لسان بور توفيق . . أليست هذه صورة مصغرة لأشكال أخرى من حروب التحرير عايشها معايشة شخصية . . وتعاطف معها سياسيا . . على نحو ما يتعاطف الآن سياسيا وشخصيا مع قضية التحرير ضد الصهيونية ؟ . .

إن هذه المعركة الصغيرة تذكره بمعارك أخرى محدودة شهدها فى فيتنام .. وفى الكونجو . . وفى كوبا . .

إنه لأول مرة يكتشف ملامح متشابهة فى عيون الإنسان فى مصر وفى جنوب شرقى آسيا وفى أواسط إفريقيا . . وفى أمريكا اللاتينية . .

هذه العيون الطيبة لأناس يريدون أن يعيشوا فى سلام . . ولكنهم يضطرون من آن لآخر أن يدافعوا عن حياتهم وعن سلامهم ضد قوى تماثل أيضا فى معالمها . .

فوجئ محمود فى أحد الأيام التالية لمعركة لسان بور توفيق وعقب عودته من إجازته القصيرة بأوامر من رئاسته بأن ينتقل مع وحدته إلى الجزيرة الخضراء . .

لم يكن قد رأى هذه الجزيرة الخضراء من قبل . . ولكنها كانت دائما محور الحديث . . خصوصا فى هذه الفترة الأخيرة التى أعقبت غارة لسان بور توفيق ولسان المسلة .

فالجزيرة الخضراء كانت إحدى نقطتى التجمع للقوات التى أغارت على الموقع . . منها قامت الزوارق الخفيفة من المطاط المنفوخ . . وإليها عادت بعد انتهاء مهمتها . . وكانت فى الأيام التى سبقت العملية أحد مراكز المراقبة ضد قوات العدو . . بالإضافة إلى أن مدافعها كانت من النقط الرئيسية لضرب التمويه ولضرب التغطية . .

فهذه الجزيرة الصخرية الصغيرة تحتل مركزا فريدا فى خليج السويس .. فهى على مسافة قصيرة من السويس ومن بور توفيق . . على مدى البصر منهما معا . . فالمسافة بينها وبين بور توفيق لا تزيد على خمسة كيلو مترات .. فهى مركز دفاع قوى للسويس .. ونقطة ارتكاز لأى وثوب على قوات

العدو فى هذه المنطقة ، بالإضافة إلى أنها مركز إزعاج لا ينتهى لتحركات العدو .

كانت هذه هى مجموعة المعلومات النظرية التى يعرفها محمود عن الجزيرة الخضراء والتى جعلت منها شيئا مهيبا خطيرا للجانبين معا . تتمسك بها القوات المصرية تمسكها بالحياة نفسها . . وتحلم القوات الإسرائيلية بالوثوب عليها إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا . .

وعندما اقترب محمود من الجزيرة لم تكن صورتها تختلف كثيرا عن تصوراته عنها ، وعندما ثبتت أقدامه عليها وعاش فيها وعايشها أدرك أن المعرفة النظرية شىء . . ومعايشة الواقع شىء آخر قد لا يكون بينهما أى فرق أساسى . . ولكن كل الفرق هو فى حجم المعرفة ومدى تأثيرها وتغلغلها فى النفس . .

لقد كانت الجزيرة فى نظره من قبل شيئا مهيبا وخطيرا . . وهو يحس بعد أن رآها أنها أكثر مهابة وأكثر خطرا مائة مرة مما كان يتصور . .

فهى جزيرة صغيرة صخرية كأصلب وأعنف ما تكون الصخور . . مجرد مجموعة كبيرة من الصخور المرجانية . . لا يمكن أن تكون الحياة قد مرت عليها . . إلا إذا كانت نوعا من الحياة الأسطورية التى لا توجد إلا فى مخيلة البحارة المرهقين أو الحدات العجائز . . يخيل لمن يلامسها أنها تتحدى الزمن . . مثلما تحدت أمواج البحر وعواصفه وأنواءه . .

ولولا صلابتها العنيفة لناءت بما حملت من الرجال وأسلحة المدفعية المختلفة المتعددة الأشكال والوظائف ، والتى يتجه بعضها إلى السماء وبعضها إلى الأرض . .

لقد تصورها محمود وهى على حالها هذا كأنها بطل أسطورى يلبس

الحديد ويتسلح بكل أنواع الأسلحة ، بعضها فى يده ، وبعضها معلق فى وسطه ، وبعضها بين أسنانه . .

ومع ذلك فهى فى النهاية نقطة صلبة وسط ما لا تكاد تدركه العين من فراغ البحر وفراغ السماء . . نقطة لا يزيد طولها على مائة وأربعين مترا . أما عرضها فيبلغ فى أقصى اتساعه سبعين مترا ، وفى نقط أخرى لا يزيد على الأربعين . .

وتملك محمود إحساس غامض بأن هذا هو موقعه الحقيقى . . فهذه الأرض التى يقف عليها تشبه نفسه تماما — صلابة وعنادا ورغبة متحدية . .

الذى نبهه إلى هذا الشبه فى واقع الأمر . . صديقه فتحى . . فقد كان يضحك معه عندما يختليان . . ويلعن اليوم الذى رأى فيه هذه الأرض التى لا مثيل لها فى الدنيا إلا وجه صاحبه عندما علم بأنباء غارة لسان بور توفيق . .

ومع ذلك فلم يكن لديه ذلك القدر الكافى من الفراغ الذى يسمح بكثير من التفكير والتأمل . . فقد كان هناك ما لا ينتهى من الواجبات عليه أن ينفذه بمجرد أن لمست قدماه أرض الجزيرة . .

وكثيرا ما كان يطالعه وجه ثريا ووفاء . . فى أثناء انشغاله ببعض الأعمال العادية التى لا تتطلب كثيرا من التركيز . . ترى كيف حالهما ؟ . . وهل ثريا ما زالت على طيبتها وبساطتها . . أم أن كثرة العمل والحركة بين الناس والبعد عن الرجل الذى تحبه قد جعل القسوة والجفاف يعرفان طريقهما إلى قلبها ؟ . . وهل أصبح لديها الوقت الكافى للعناية بوفاء . . أم أن مسئولياتها الجديدة التى حملتها متطوعة قد أنستها واجباتها كأم ؟ .

ليتها تعرف أين هو الآن . . على الأقل ليحس بأن هناك تيارا مشتركا من العواطف والفهم المتبادل بينهما . .

ولكنه كان سرعان ما يقرر أن يترك هذه الأفكار جانبا . : ولديه

الليل بطوله يستطيع أن يحلم فيه كما يشاء . .

والواقع أنه نادرا ما استطاع أن يحلم . . فقد كانت اللحظة التى يضع فيها جسمه على سريره الخشبى الصغير بعد يوم أو ليل ملىء بالعمل . . هى ذات اللحظة التى يغط فيها فى نوم عميق كأنه افتقد النوم منذ عام كامل . .

لا يذكر أن شيئا استطاع أن يزعجه فى نومه إلا تلك السلسلة السريعة المتلاحقة من الانفجارات التى أحس معها ذات فجر لا ينساه ، بأن الدنيا من حوله قد استحالت إلى بركان يتطاير حممه فى كل اتجاه . . وأن أرض الجزيرة تكاد تنشق وتتفتت لتبتلعها المياه والظلام . .

أراد أن يندفع إلى خارج مخبئه المغطى . . ولكنه سرعان ما تمالك أعصابه . . واستحال من إنسان تكاد تذهله المفاجأة إلى جندى فى مركز قيادى . . وعليه أن يقدر الموقف من حوله فى ثوان . . وأن يصدر الأوامر التى تناسب كل لحظة . .

كانت هذه الشهور الطويلة التى قضاها فى الجبهة قد عودته على أصوات الانفجارات ومرأى الشظايا والأحجار المتطايرة . . واعتاد أن يتصرف فى الأمر كأن هذا جزء من الحياة اليومية . . ولكن الموقف فى ذلك الصباح الباكر كان شيئا مختلفا تماما عن كل ما اعتاده من أنواع الضرب . .

فالقنابل والقذائف الصاروخية والرصاص المنتشر تأتى من السماء ومن البحر . . من بعد ومن قرب . . وألسنة اللهب المندفع تحيط بكل شىء . .

واندفع إلى تليفون الميدان بالقرب منه يحاول أن يتصل برئاسته . . ولكنه وجد الآلة قد فارقت الحياة نهائيا . .

وفكر فى الأمر بسرعة . . إن الأمر ليس فى هذه المرة تراشق بنيران المدفعية . . وليس مجرد إغارة من مجموعة طائرات . . فالواضح أنها حملة مركزة تقصد إلى احتلال الجزيرة . . وانتزاعها من أيدى المصريين . .

ورغم أن أرض الجزيرة لا تعدو أن تكون قطعة من الصخور الصلبة التى لا حياة فيها . . فانها تعنى بالنسبة له وبالنسبة للوطن كله الكثير جدا . . ضياعها معناه ضياع الأمن والسلام لمزيد من أرض الوطن وأبنائه . . وضياع قطعة من الأمل الذى يقود إلى النصر الذى يعمل منذ سنوات من أجل تحقيقه .

هذا يومك إذن يا محمود . . أرنا ماذا ستفعل يا بطل . .

وعليك أن تتروى كثيرا . . فالعملية قد تطول ساعات ، بل ربما أياما كاملة . .

***

كانت الساعة فى يده تشير إلى الثالثة صباحا . . لم تكن خيوط الفجر فى ذلك اليوم من شهر مايو قد اتضحت بعد . . كان اليوم هو الأحد ٢٠ مايو ١٩٦٩ ولم يكن قد انقضى على معركة لسان بور توفيق التى لم يستطع الاشتراك المباشر فيها أكثر من عشرة أيام .

ترى هـــل يريد الملاعين أن يثأروا لأنفسهم مما أصابهم فى لسان بورتوفيق ؟ .

على كل حال إذا أرادوا . . فهذه هى فرصته . .

كان يكره التراشق على البعد بنيران المدفعية . . لم يكن هذا يرضى ما بداخل نفسه من حقد . . فهو لم يكن يدرى إلى أين تذهب قذائفه ولا أى إنسان تصيب . .

هو يريد عملية فيها مواجهة تتلاحم فيها الأضداد . .

لم يستغرق هذا من فكره كثيرا . . ربما لجزء على المائة من الثانية . . فقد كان عليه أن يعمل بشجاعه . . ولكن بمنطق . .

أخذ يحاول التعرف على الموقف وتحديد أبعاده . . القذائف التى يسمع انفجاراتها هى بغير شك قذائف العدو على تحصينات الجزيرة . . ولكن

الدشم الصخرية حصينة . . تجعل كل أثرها مجرد ضجيج مقلق . .

ولكن هناك أيضا المدفعية المصرية بدأت تصوب قذائفها من السويس ومن بور توفيق — إنه لا يمكن أن يخطئ صوتها ومصدرها . . وهى طبعا لا توجه قذائفها إلى الجزيرة ولكن إلى ما حولها . .

إذ يبدو أن هناك أهدافا معادية فى البحر . .

ومع الخيوط الأولى الباهتة من الفجر اتضحت الحقيقة . . كانت هناك مجموعة من قوارب المطاط تحمل قوات إسرائيلية — كل قارب يحمل حوالى عشرة — وتتجه إلى الجزيرة . .

وتوقف ضرب المدفعية الإسرائيلية فى موعد يبدو أنه متفق عليه تماما . .

فقد توقفت كلها دفعة واحدة . . أو حولت اتجاه تصويبها . . والمدفعية المصرية على البعد تدك كل ما يمكن أن تصل إليه من أهداف العدو التى يحتمل أن يكون متمركزا بها ويطلق منها قذائفه . . والطرفان يتجنبان التصويب ناحية الجزيرة . .

إذن فلابد أن مجموعات من راكبى القوارب نزلت إلى الجزيرة الخضراء . .

هذه فرصتك يا محمود فى القتال المتلاحم . .

لم يعد هذا هو وقت مدافع الميدان البعيدة . . بل المدافع الخفيفة الرشاشة ، بل والسلاح الأبيض إذا لزم الأمر . .

كانت مشكلته الحقيقية هى كبح جماح رجال وحدته من حوله . . كانوا يريدون الاندفاع إلى الخارج ... حتى فتحى . . انقلبت شخصيته فجأة وأصبح كحيوان سجين يريد أن ينطلق فى اتجاه الفريسة . . أو فى اتجاه الموت . . لم تكن حكاية الموت هذه تخطر على باله . . فقد كان يتذرع دائما بحكمته الخالدة الضاحكة . . أن عمر الشقى بقى . .

* * *

كان يوسف من بين المجموعة الأولى التى وضعت أقدامها على أرض الجزيرة الخضراء . . يا لله ! . . إنها أبعد ما تكون عن اسمها . . فلا هى خضراء ولا تمت إلى الخضرة أو الخصب بصلة . .

وطبعا لم تكن هذه الحقيقة مفاجأة له . . فقد ظل يتدرب على هذه العملية طوال الأسبوع المنقضى . . وكان يعرف تفاصيل كل جزء من هذه الجزيرة الصخرية . . والموقع المحدد لنزوله ومجموعته . . رآها فى الصور وفى الرسوم الإيضاحية . . وفى النماذج المجسمة التى درست لمجموعة الغزو كلها . .

كان يرتعد وكأن الدنيا ليلة شتاء قارس البرد . . وبذل جهدا لكى يمنع أسنانه من أن تصطك بصوت مسموع . .

ودارت فى رأسه أفكار كثيرة . .

الظاهر أن حكاية جبن المقاتل المصرى وانخفاض قدرته القتالية التى كانت الدرس الذى لا يكف رؤساؤه عن التغنى به . . هذه الحكاية هو أول من يعلم الآن بكذبها . . لقد ذاق مرارتها منذ عشرة أيام فى معركة لسان بور توفيق . .

ماذا جرى لهؤلاء المصريين ؟ . . إنه يعرفهم أكثر من أى شخص آخر . . ويعرف أنهم ناس طيبون . . ليس فى طبعهم حدة . . وكل ما يعلمه عن روحهم القتالية ما كان يشاهده فى شوارع الإسكندرية من حين لآخر من معارك يدوية بين الحمالين أو سائقى عربات الكارو . .

إنه حتى لم يقابل جنودهم فى حرب الأيام الستة — ولا وقعت عينه على أحدهم فى الجبهة . . هو فقط يذكر مجموعة الأسرى المذهولين التعساء الذين حاصرتهم مجموعات أخرى . .

ولكن . . هذا الصباح التعس منذ عشرة أيام على لسان بور توفيق

لقنه درسا من نوع مختلف تماما . . شيء ما لابد أن يكون قد حدث لهؤلاء المصريين . .

وعلى كل حال . . فعليه الآن أن يلقنهم درسا آخر . . هؤلاء الذين جعلوا حياته على أرضهم ضيقة إلى الحد الذى دفعه إلى الهجرة إلى إسرائيل . . لعله أن يجد حياة أكثر رخاء وأمنا . .

وكادت ابتسامة باهتة يائسة ساخرة أن ترتسم على وجهه فى الظلام .. هذا الرخاء والأمن . .

وكاد يضحك مرة أخرى وهو يتذكر أن إنسانا آخر فى نفس هذه اللحظة من يوم ٢٠ يوليو ١٩٦٩! يضع قدمه لأول مرة على سطح القمر . . يا للمصادفة اللعينة . . لعل سطح القمر صخرى مرجانى كهذه الجزيرة التى يسمونها الخضراء . .

ولكن إنسان القمر لابد أنه أسعد حالا . . فلا أحد هناك ولا قذائف تصم الآذان ولا الموت ينطلق فى كل لحظة ومن كل اتجاه . .

على كل حال ليس أمامه الآن إلا أن يتقدم . . فالقضية الآن هى قضية حياته أو موته . . ولابد أن يحتفظ بالحياة ولتذهب هذه الجزيرة الخضراء إلى الجحيم إذا أرادت . .

كان محمود هو الضابط المسئول عن الدفاع عن القطاع الشمالى للجزيرة . .

وكان هذا هو القطاع الذى رست عليه قوارب الغزو العشرة . . كان محمود يعرف كل شبر فى هذا القطاع . . سواتره . . ودشمه ومخابئه . . وأنفاقه تحت الأرض الموصلة إلى القطاع الجنوبى . .

وزع محمود قواته ومعها أسلحتها الخفيفة . . بحيث يستطيع كل فرد أن يؤدى واجبه فى اصطياد الغزاة بأقل قدر ممكن من الخسائر . .

ومع الخيوط الأولى للفجر . . استطاع أن يميز أشباح الأعداء فى تقدمها البطىء الحذر ، ويقدر عددها ونوع أسلحتها . .

وأخذت المدافع الرشاشة تنطلق من هنا وهناك — وسكت القطاع الجنوبى تماما ، وتأهب لكى يكون احتياطيا متحركا للقطاع الشمالى إذا دعت الضرورة إلى ذلك . .

وكانت القنابل اليدوية تنطلق من الجانبين وتحدث انفجاراتها دويا يختلط صداه بصيحات الجرحى وبزئير المصريين الذين تعلو أصواتهم المتحمسة الداعية بالنصر مع كل قذيفة . .

القلب يغلى مع الدعاء ، و تتقلص السواعد وتدب فيها قوة جهنمية . . وتنطلق . . وفقد الموت معناه . . أصبح وكأنه ظاهرة عادية من ظواهر الحياة اليومية لا يلفت النظر . .

ولولا تيقظ حواس محمود وتركيزه على كل حركة تجرى من حوله لترك المعركة دقيقة يرقص فيها من فرحه بلقائه مع الذين تمنى على مدى سنتين أن يلقاهم ويقتل منهم واحدا أو اثنين . . ولكنه اكتشف أنه قتل ثلاثة على الأقل وجرح أكثر من هذا العدد . .

فهو لم يقف فى الخلف ليصدر الأوامر ويتابع تنفيذها . . وإنما وزع المسئوليات على الجميع . . وترك كلا لمسئوليته . . واتخذ موقعه إلى الأمام مع الآخرين . .

حادث واحد فقط لا زال يذكره وحفره فى قلبه العرفان بالجميل . . فقد كاد محمود فى لحظة من المعركة أن تطوقه مجموعة من جنود الأعداء . . وإذا بزميل له يبرز من مخبئه وقد رمى سلاحه وأخذ يصيح فيهم ليلفت إليه الأنظار . . واتجهت المجموعة إليه وشجعهم بتراجعه البطىء على ملاحقته . . فلما اقتربوا منه امتدت يده إلى قنبلة يدوية فى جيبه وأسرع بالقائها على

المجموعة المحيطة به . . ولكنهم كانوا أسرع منه فى الانقضاض عليه وسقط شهيدا لواجبين . . الأول دفاعه عن أرضه . . والثانى إنقاذه لحياة قائده . :

وأحس محمود بألم شديد فى ساقه ، ورأى الدم ينزف ليس من الساق وحدها . . بل ومن فمه أيضا . .

ووقع على الأرض متنبها أشد ما يكون الانتباه : . ولكنه عاجز عن الحركة تماما . .

وأصدر أمره إلى مجموعته بأن يتسللوا واحدا وراء واحد إلى المخابئ والممرات التى توصلهم إلى القطاع الجنوبى وأن يتركوه وحده . .

كان فتحى هو ساعده الأيمن الذى ينقل الأوامر ويشرف على تنفيذها . :

ونفذت الأوامر بدقة — وأصبح الموقف الآن فى المرحلة الحاسمة التى يزدحم فيها القطاع الشمالى بالجنود الإسرائيليين وقد ظنوا أنهم طهروا القطاع تماما . . وكان عليهم بعد ذلك أن ينتشروا فى الجزيرة لكى يطهروا القطاع الجنوبى : .

كان قد مضى على بداية المعركة أكثر من ساعة ونصف الساعة . : سكتت خلالها المدفعية من الجانبين وتركت المسئولية للغزاة والمدافعين . :

كان لابد من حدوث شيء ما فى هذه الدقائق الحاسمة . . التى يتجمع فيها جنود العدو فى قطاع واضح محدد . . ويحتمى المدافعون فى قطاع آخر واضح محدد . :

وأصدر محمود أمره إلى فتحى لكى يبلغه إلى قيادته على الفور : : لم يبق واحد من المصريين حيا فى القطاع الشمالى : : وعلى المدفعية المصرية أن تبدأ فورا بدك هذا القطاع على من فيه من الإسرائيليين . .

وتردد فتحى — وصاح فيه . . إن هذا انتحار لا شك فيه : :

فليسمح له على الأقل بحمله ونقله إلى أحد الأنفاق . .

ورفض محمود أى مناقشة وأصدر إلى فتحى أمرا قاطعا عسكريا . . وكأن ليس بينهما ما يسمح بأى كلام شخصى . . عليه هو أن يذهب الآن وحده ويتركه لمصيره وجراحه ولتبدأ المدفعية المصرية دك القطاع . . وعليه ألا يذكر حرفا واحدا يشير إلى وجود محمود على هذه البقعة من الأرض . .

وكانت نظرة فتحى الخاطفة من قبل أن يتركه ويتسلل وكأنها صفحة كتاب كاملة فيها كل التقدير لشجاعة صديقه وقائده . . ووداع أحلى الصداقات والأصدقاء . .

وفى لحظات كانت المدفعية المصرية من بور توفيق والسويس تصوب قذائفها فى دقة وإحكام نحو القطاع الشمالى للجزيرة . .

كما بدأ القطاع الجنوبى فى تصويب نيرانه إلى القوات الإسرائيلية المحصورة . .

ولم يكن أمام الإسرائيليين إلا أن يحملوا جرحاهم وقتلاهم معهم إلى قواربهم ويرحلوا تاركين كل ما يمكن تركه من أسلحتهم . .

وبدأت القوارب العشرة ترحل عن أرض الجزيرة الخضراء تصوب إليها شمس الصباح الباكر أضواءها فتجعلها فريسة سهلة للقوات المرابطة فى الجنوب ومدفعية السويس وبور توفيق . .

وما كاد يوسف يتنفس بملء صدره أن نجا من هذا الجحيم حتى انفجرت قذيفه بالقرب من قاربه قلبته ومن فيه . . وعاجلت قذيفة أخرى القارب الثانى . .

وارتفعت الصيحات وأصوات الاستغاثة . . وتلوث سطح مياه خليج السويس بدماء الجرحى ، وطفت علي السطح بعض الجثث : :

وتوقفت المدفعية عن الضرب : .

وساد هدوء كأن لم تعكر صفوه من قبل معركة متلاحمة كانت نقطة تحول فى تاريخ الحرب على خطوط المواجهة المصرية : :

كان هذا هو التعبير الذى لخص به أحد الخبراء العسكريين السوفييت الموقف لأناتولى . . وهما يتابعان الجزء الأخير من المعركة من أحد المواقع فى بور توفيق . .

فهذه هى أولى المعارك الكبيرة التى يلتحم فيها الجنود المصريون مع جنود إسرائيل ، وقد ثبت فيها أن الجندى المصرى مقاتل شديد البأس : : وتبخرت خرافة الجندى الإسرائيلى الذى لا يقهر . . إنها المعركة الكبيرة الأولى . . والمعركة الثانية المتلاحمة بعد معركة لسان بور توفيق . .

وقاطع أناتولى زميله الخبير السوفييتى وسأله عما إذا كان يعرف الضابط المهندس محمود عبد السلام . . وعما إذا كان من بين الذين كلفوا بالدفاع عن القطاع الشمالى من الجزيرة ؟ . .

والتقت العيون . . لم يكن الخبير يعرف محمود . . وإذا كان يذكره فهو لا يعرف أين موقعه . . وكادت دمعتان أن تقفزا من عينى أناتولى . . جففتهما على الفور نظرة مشجعة قوية متفائلة من عينى الخبير . .

كان الجنود يحملون محمود على محفة ويتجهون به بسرعة إلى أحد الزوارق السريعة الخفيفة للبحرية المصرية التى استطاعت أن تسرع إلى أرض الجزيرة الخضراء : : وشق الزورق طريقه فى مياه الخليج متجها إلى الشاطئ القريب . . فى نفس اللحظة التى ظهرت فيها طائرتان من طائرات الهليوكبتر للعدو تحاولان أن تلتقطا من سطح مياه الخليج من تبقى من جرحى القوات الإسرائيلية . .

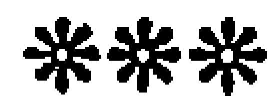
وحلقت فوق الطائرتين الهليوكبتر طائرتان من طراز ميراج لحمايتهما : :

كان يقود إحداهما دافيد سيكورسكى : :

وما أسرع ما بدأت المدفعية المضادة للطائرات من أرض الجزيرة الخضراء عملها . :

كان دافيد يحاور بطائرته فى الجو وكأن روحا شيطانيا قد ركب رأسه .: وكان يندفع اندفاعات مخيفه إلى مراكز الخطر .. فى عينيه إصرار ولا مبالاة وحقد على كل شىء . :

وفى أقل من ثانية كانت إحدى القذائف قد أصابت ذيل طائرته : . وبدأ الدخان والنيران يتوغل فى جسم الطائرة . . وتلقى الأوامر من خلال السماعات على أذنيه أن يترك الطائرة ويقفز . . ولكنه أصم أذنيه . . وناور ببقايا الطائرة حيث اتجه بمقدمتها إلى الجزيرة الخضراء وفى عينيه كل الحقد اليائس .. وتناثرت الطائرة بكل شحنتها من المتفجرات على أرض الجزيرة، التى كان بعض جنودها ما زالوا يتابعون على البعد الزورق الذى يقل محمود إلى الشاطئ ، يرفرف عليه علم مصر .



كُلُّنَا إِخْوَة

فى فنار شدوان يقف « بهجت عز الرجال » وهو رجل فى الخمسين من عمره يؤمن بسلطان القانون ، وإلى جواره « كمال » وهو شاب فى الثلاثين يؤمن بأن القوة ترغم الآخرين على احترامك وأنك بالقوة تستطيع أن تنال كل شىء ، وإلى جوارهما « جرجس » وهو رجل فى الخامسة والثلاثين فر إلى الفنار بعد أن قاسى من معاشرة زوجته وسوء معاملتها له :

ونرى من زاويتهم الباخرة عايدة وهى قادمة فى جو عاصف شديد ، الباخرة لا تستطيع أن تصل إلى الفنار ، فتنقل المؤن إليه بالحبال ، وتسقط بعض البراميل فى الماء ، ويظهر الهلع فى وجوه الواقفين على سلم الفنار ، وبعد جهد كبير تصل إليهم المؤن .

وينتقل إلى الفنار « يحيى » ، وهو شاب جاء ليعمل فى الفنار ، ويحمل يحيى كلبه على ذراعه :

وعندما يصل يحيى إلى زملائه الجدد ، يقول له بهجت إن القانون يحرم وجود الكلاب فى الفنار ، فيحاول يحيى أن يجد مبررا للاحتفاظ بكلبه ، ولكن كمال ينزع الكلب منه ويعيده إلى الباخرة عايدة : وبعد إقلاع الباخرة يقفز الكلب إلى الماء ويصارع الأمواج ويعود إلى يحيى الذى يستقبله فى فرح .

يتلفت يحيى فى الفنار منشرحا ، ويمتدح الحياة الشاعرية الهادئة ، فيتلفت الجميع بعضهم إلى بعض ، وتظهر فى نظراتهم السخرية من انشراحه :

ويجتمع بهجت وكمال ويحيى فى مكتب بهجت ، ونجد على مكتبه صورة فيها أسرته ؛ ويتحدث بهجت عن أولاده فى حب شديد، يظهر منه أنه يعيش لهم ولا يفكر فى شىء إلا فيهم .

ونرى أمام بهجت صحف الشهر : يطلب كمال فى لهفة صحيفة فيها

قصة مسلسلة : : يقول بهجت إن النظام يقضى بأن تقرأ الصحف حسب تواريخها ولا يقرأ فى اليوم أكثر من صحيفة واحدة : ويطلب من يحيى أن يحترم التقاليد فى الفنار ، وأن يحتفظ بمعلوماته لنفسه طوال الشهر ، ويطلب منه ألا يفسد عليهم الرواية المسلسلة . فيعد يحيى بذلك .

وفى الليل نرى الجميع وكل منهم منهمك فى هوايته . . كمال يقوم بصنع بعض أشياء تعتمد على القوة ، وجرجس يجمع القواقع ويصنع منها أشكالا جميلة ، وآخر يرسم صورا تنفس عن الكبت :

يدخل الكلب حيث كان كمال ، ويعبث ببعض الأشياء ، فيثور كمال ويطرد الكلب فى قسوة . يرى يحيى ذلك فيحتضن الكلب فى حنان كأنما يعوضه عما ناله من كمال .

وفى الصباح نجد بهجت يقص على كمال ويحيى رؤيا رآها ، ويقول إنه منقبض لأن تأويل هذه الرؤيا أن سوء تفاهم قد وقع بين ابنته وخطيبها : ويقدم بهجت إلى كمال الصحيفة التى قرأها ، ولكن كمال يقول له إنه لم يعد فى حاجة إليها فقد عرف نهاية القصة المسلسلة ، فيقول بهجت ليحيى أنه لم يف بوعده إذ أطلع كمال على نهاية القصة ، ويوقع عليه جزاء قاسيا : فيحاول يحيى أن يدافع عن نفسه دون جدوى .

ينفذ على يحيى الجزاء وكمال يرقبه وهو يبتسم فى سخرية .

ويجتمع الجميع على الغداء ، ويسأل بهجت يحيى عما دفعه إلى العمل بالفنار ، فيقص يحيى قصته ، ويقول إنه أحب شابة وكان ينوى أن يتزوجها ، ولكن أحد أصدقائه الأغنياء خطفها منه : يجد جرجس فرصة لينفس عن كراهيته للنساء ، ويذكر بعض ما كانت تقوله له زوجته « سيسيل » من أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها ، وكيف أنه سعيد ، وكيف أن الحياة بدون نساء هى أفضل حياة :

— ما فيش حواليهم إلا التعب ووجع القلب :

***

البحر عاصف ، ونجد لنشا به « نسمة » وكلبتها وخطيبها وابن عمها «صفوت » وهما يحاولان أن يتحكما فى اللنش ، بينما الموج يجرف اللنش فيرتطم بالصخور ويتحطم : ونجد صفوت ونسمة فى البحر يكافحان للوصول إلى كتلة خشب طافية . وتظهر أنانية صفوت ونلاحظ أنه يريد أن ينقذ نفسه دون أن يلتفت إلى نسمة ، ويصل إلى كتلة الخشب قبلها ، تكافح هى وحدها وهى ممسكة بكلبها حتى تصل إلى كتلة خشب أخرى :

وفى الفنار ، يلمح كمال الحطام فيشير لزملائه إليه ، فيهرع الرجال إلى البحر ويركبون زورقا ويسرعون لانتشال نسمة وصفوت ويعودون بهما إلى الفنار . يحاول يحيى أن يحمل نسمة ولكن كمال يدفعه ويحملها هو ، ويتجه يحيى إلى صفوت ويحمله .

يتنافس الجميع على إفاقة نسمة ، بينما لا يهتم أحد بصفوت إلا يحيى : ويفرح الكلب بوجود الكلبة فيأخذها ويسيران حتى يتواريا عن الأنظار :

وتفيق نسمة ويفيق صفوت ويذهبان ليستريحا قليلا . . فتدب فى الفنار حياة جديدة ، ويبدأ الجميع فى التأنق حتى بهجت ، ويظل جرجس يندب حظه لأن امرأة عرفت طريقها إلى الفنار ، وأن هذه هى بداية المتاعب .

ويهدأ البحر ، ونجد فى الليل أن وليمة قد أعدت على الصخرة التى أقيم فوقها الفنار ، وقد حضر إلى الوليمة كل العاملين بالفنار إلا جرجس فقد وقف بعيدا وقد ظهر عليه الاستياء الشديد :

يقص صفوت ما حدث فنعلم أنه كان مع خطيبته وابنة عمه نسمة فى نزهة ، وأن العاصفة فاجأتهما وجرفت اللنش فتحطم على الصخور :

ويحاول كمال فى أثناء الوليمة أن يعلن عن نفسه بينما نجد يحيى مطويا

على نفسه . ونجد نسمة بين لحظة وأخرى تلتفت ناحية يحيي :

ويدور حوار بين بهجت وكمال ويحيي حول ما يجب عمله فى شأن نسمة وصفوت ، فيقول بهجت إن القانون يحرم أن يبيت غرباء فى الفنار ، وأنه يرى أن تنصب خيمة خارج الفنار لنسمة وصفوت ، فيقول كمال أنه يوافق على أن يبيت صفوت فى الخيمة ، أما نسمة فهو يرى أن تبيت فى غرفته هو ، فيعترض يحيي ويقول إن الإنسانية تقضى بأن يؤووا صفوت ونسمة كليهما فى الفنار . وبعد جذب وشد ينتصر رأى يحيي :

وتدخل نسمة إلى غرفتها . ونلاحظ فى الفنار حركات غير عادية ، فالجميع يحاولون أن يروا نسمة وهى فى خلوتها . إلا جرجس فهو ينتقد هذه الحركات لكراهيته للنساء ، أما يحيي فهو ينتقدها لمجافاتها للأخلاق :

ويحدث احتكاك بين يحيي وكمال وينضم الكلب إلى يحيي ، وتنتهى المشادة بينهما بأن ينتصر يحيي ويبتعد كمال عن غرفة نسمة :

وفى الصباح يتقابل صفوت ونسمة ، ونفهم أن فتورا وقع فى العلاقات بينهما بسبب أنانية صفوت وعدم محاولته أن يمد لها يده بعد أن تحطم بهما اللنش :

وفى أثناء سير نسمة فى الفنار تجد أن كمال يعد مشنقة ، فتسأله عنها فيقول لها إنه سيشنق بها فى يوم من الأيام يحيي وكلبه : .

ويخرج الجميع لصيد الغزلان فى الجبل الذى أقيم عليه الفنار ، ويلمحون غزالا فيطاردونه ، ويتردى الغزال فوق الصخور فتكسر ساقه ، ويكون يحيي أول من يلحق به ، ويلحظ ساقه المكسورة فيمرر يده على الغزال فى حنان :

ويلحق به الجميع ، ويحاول كمال أن ينتزع الغزال منه ، ولكن يحيي يضم الغزال إلى صدره ويقول إنه لن يسمح لأحد أن يمس الغزال بأى أذى : فيهجم عليه كمال لينتزع منه الغزال ، ولكن نسمة تنضم إليه وتقول إنها مستعدة أن تضحى بروحها مع يحيي لتحول دون أن يمس الغزال أى أذى :

فينكس الجميع رءوسهم ، ويحاول يحيي أن يضمد رجل الغزال ويبحث عن ضماد ، ولما لا يجد تعطيه نسمة قطعة قماش قطعتها من ثيابها الداخلية .

وتظهر الغيرة فى وجهى كمال وصفوت .

ويحاول صفوت أن يسيطر على كل من فى الفنار بماله . . ويحاول كمال أن يسيطر على الجميع بقوته . . ويحاول بهجت أن يسود القانون . أما يحيي فيحاول أن تسود المحبة بين الجميع .

وفى ليلة مقمرة تجرى الكلبة وتجرى نسمة خلفها ، ويجرى الكلب خلف الكلبة ويجرى يحيي فى أثره . تتجه الكلبة إلى الزورق وتدخل نسمة الزورق خلفها ، ويقفز الكلب إلى الزورق ويقفز يحيي خلفه :

ويلتقى يحيي بنسمة ويتبادلان النظرات ، وإذا بنسمة تحل رباط الزورق فينساب على سطح الماء ، ويقف الكلب والكلبة عند مقدم الزورق ، ويدور بين يحيي ونسمة حديث فتسأله عن سبب انطوائه ، فيخبرها أنها أكدت له رأيه فى النساء فهن متقلبات لا يستقررن على حال . فهى مثلا مخطوبة لابن عمها وها هى ذى تتركه لتقضى وقتا طيبا معه . فتقول له نسمة إن ابن عمها خدعها . . فقد قال لها إنهما خارجان فى نزهة وأن لا شىء يشغل باله غيرها . وإذا بخروجهما لم يكن للنزهة بل كان لمباشرة العمل ، فهو لا يفهم فى الحياة إلا جمع المال ، وهو ما خرج إلا ليلتقى بصيادى اللؤلؤ لنزيد ثروته ، وإنه أظهر منتهى الأنانية لما تحطم بهما اللنش ولم يفكر إلا فى نفسه .

ويعودان إلى الفنار وإذا بصفوت ينتظرهما وهو غاضب ، ويأخذ نسمة ليعاتبها . ويلحظ جرجس ذلك فيقول لبعض الرفاق : لقد بدأت متاعب حواء .

وتدور مشادة عنيفة بين صفوت ونسمة ، وتقول نسمة لصفوت إنها لم تعد تحبه . وتعيد إليه خاتم الخطوبة وتقول له إنها أصبحت حرة تفعل ما تشاء وتحب من تشاء .

ويدخل بهجت على كمال وبجده يستمع إلى الراديو ، فيفهم أن يحيى كان صادقا عندما قال إنه لم يذكر لكمال شيئا عن القصة المسلسلة وأن القصة تذاع كل ليلة فى الراديو . فيعاتبه على أنه تسبب فى توقيع أكثر من جزاء على يحيى دون وجه حق ، فيقول إن يحيى يستحق الشنق :

ويعتذر بهجت ليحيى ، فيقول يحيى أنه صفح عن كل ما حدث له ، ويتمنى لو أن كمال يترك العنف ويتعلم كيف يحب الناس . ويؤكد يحيى أنه يحب كمال ويتمنى له الخير :

يعود بهجت إلى مكتبه ويأخذ فى قراءة رسالة ويظهر فى وجهه الحب والوجد . ويدخل صفوت ويلاحظ ذلك فيسأله عن الرسالة فيقول له بهجت إنها رسالة من زوجته وأنه يقرؤها كل ليلة . ويقدمها لصفوت ليقرأها ، فيقرؤها صفوت ثم يقول له : بكم تبيعها ؟

فيقول له بهجت : إنها رسالة من زوجتى لا تقدر ل .

ويؤكد صفوت أنه يحتاج إليها بعض الوقت .

فيصرح له بهجت بأخذها على أن يعيدها :

يأخذ صفوت الرسالة ويذهب بها إلى نسمة ويدفعها إليها ، فتقرؤها نسمة فتجد أنها تروى كيف أن زوجة بهجت تنتظره فى لهفة ، وكيف أن أولاده فى شوق إليه ، وتطلب منه فى ختامها أن يفكر فى ترك هذا العمل ليبقى لهم وحدهم ، فتبكى نسمة ويفرح صفوت ويقول لها :

— أرأيت ؟ ! هذه حياة قاسية . . كيف تطيق زوجة أن يحيا زوجها مثل هذه الحياة ؟ ! . :

فتقول له نسمة :

— إنى أبكى لأن هذه الزوجة لا تزال تحب زوجها مثل هذا الحب بعد زواج دام أكثر من عشرين سنة ، يا ليتنى أنعم بمثل هذه السعادة . .

ويخرج صفوت ثائرا ، ويعود إلى بهجت ويلقى بالرسالة فى غضب ، ويدخل كمال إلى الحمام كما اعتاد كل يوم ، وفجأة يصرخ لأن الماء نفد، ويظهر فى وجوه الجميع الهلع ، ويقول بهجت إنه ما زالت هناك كمية من الماء لابد من المحافظة عليها .

ويسرع كمال ليستولى على الماء ، ويسرع يحيى ليصل إلى الماء قبله : ويحاول كمال أن يستغل قوته فى أن يحتفظ بالماء عنده . ويؤكد يحيى أن الماء لابد أن يبقى فى حوزة بهجت : ويصيح صفوت أنه مستعد أن يدفع لهم كل ما يريدون على أن يحوز الماء وحده . فتنظر إليه نسمة فى احتقار . ويعود جرجس يؤكد أن كل ما يجرى الآن إنما هو بسبب حواء . ويقول إن كانت حواء قد أخرجت آدم من الجنة فان نسمة قد أدخلتنا جميعا النار .

ويمد يحيى يده ليأخذ الماء من كمال وإذا بكمال يضربه . ويجد يحيى ألا مفر من أن يستخدم القوة ، فتدور معركة بينهما تمتاز بأن يحيى لا يهاجم ولكنه يدافع عن نفسه بطريقة المصارعة اليابانية :

وتنتهى المعركة نهاية سيئة بأن ينسكب الماء على الأرض والجميع ينظرون إليه فى هلع . وتتوسط الشمس كبد السماء ، ويتفصد العرق من الجميع ويكاد العطش يقتلهم :

ونرى نسمة تنكمش إلى جوار يحيى ، ويحيى ينظر إليها فى إشفاق : وفجأة تلتمع فى ذهنه فكرة .

نجد يحيى فى الليل يضع كوب ماء فارغ وفوقه قطعة قماش ، وفوق القماش قمع مقلوب من الزلط والرمل ، حتى إذا جاء الفجر نجد أن الندى

...

قد ملأ الكوب . ولا يشرب يحيي الماء بل يذهب به إلى نسمة ويبلل شفتيها ، ويبلل كذلك شفاه الجميع ، ويحاول كمال أن ينتزع الكوب منه فيقول له يحيي إن القوة لا تجدى . ويحاول صفوت أن يشترى الماء فيقول له يحيي إن المال لا قيمة له ، وبعد أن يبلل شفاه الجميع يبلل هو شفتيه .

وفى الليل نجد الجميع يقومون بعملية الكوب والقمع المقلوب من الزلط والرمل . ويخرج عامل اللاسلكي من غرفته ويقول لهم إنه تمكن من الاتصال بمركب فى عرض البحر ، وأن المركب قادم يحمل إليهم الماء ، وليعود بصفوت ونسمة إلى بلدهما .

يذهب يحيي إلى نسمة ويبشرها بأن مركبا قادم ليحملهما إلى بلدهما فتقول له نسمة إنها تتمنى لو يطول بقاؤها إلى جواره . . فيقول لها إنها لابد أن تعود ، وأن إجازته ستحل بعد ستة أشهر . فتقول له إنها ستنتظره حتى لو كانت إجازته بعد ست سنوات .

ويأتى المركب وتحين لحظة الوداع ، فاذا بنسمة تنطلق إلى يحيي وتقبله وتقول له : سأنتظرك يا يحيي .

وتأخذ نسمة كلبتها ، ويقف الكلب إلى جوار يحيي ، يلوح الجميع بأيديهم مودعين ، ويأخذ الكلب فى النباح .

الدموع فى عيني نسمة .

الدموع فى عيني يحيي :

التأثر باد على وجوه الجميع :

يقول جرجس :

ـــ الستات متعبين صحيح ، لكن منقدرش نستغنى عنهم ؟

يَوم عَصِيب

أشخاص الرواية

إسماعيل : رجل فى السابعة والأربعين ، صاحب شركة مقاولات .

أبكار : زوجته فى الأربعين.

يسرى : ابنه فى الثانية والعشرين :

أميمة : فى التاسعة عشرة ، خطيبة يسرى .

صالح : صديق إسماعيل ووكيل أعماله .

سنية : زوجة صالح .

ضابط .

- ١ -

عربة إسعاف تحمل يسرى وتتجه به إلى أحد المستشفيات ، وينقل إلى غرفة العمليات لإجراء عملية سريعة ، ويدور حوار بين رجال الإسعاف ورجال المستشفى يفهم منه أن يسرى حاول الانتحار دون أن يعرف السبب .

يعطى يسرى إحدى الممرضات — قبل أن تجرى له العملية — رقم تليفون أميمة ، ويطلب منها أن تخبر أميمة بأنه فى المستشفى . تسرع الممرضة وتنفذ رغبته ، وتأتى أميمة على عجل .

وتستفسر أميمة عما حدث ، فيقال لها إن يسرى حاول أن ينتحر ، فتنفى فى شدة هذا الخبر وتذكر أنها كانت مع يسرى من نصف ساعة ، وأنه كان يحدثها عن الزواج وعن آماله فى المستقبل :

وتفتح غرفة العمليات ، ويخرج يسرى وهو على عربة المستشفى ولا يزال تحت تأثير البنج . . وتنظر إليه أميمة فى حب ، وتسرع إلى الدكتور وتسأله عن حالة يسرى فيطمئنها بأنه بخير ، وأن الجرح لم يكن خطيرا .

وينقل يسرى إلى غرفته بالمستشفى ، وتذهب أميمة لتمكث معه ، وتتلفت فى الغرفة فلا تجد أحدا من أهله ، فتقوم إلى التليفون وتطلب إسماعيل بك الأب وتخبره بما حدث لابنه ، ويتلقى الأب النبأ فى دهشة ويسرع إلى المستشفى وهو بادى الخوف والتأثر .

وتطلب أميمة الأم أبكار هانم وتخبرها بأن يسرى فى المستشفى وقد أجريت له عملية . . فتقول الأم إنها رأته بعد أن طعن نفسه بالسكين وأنها لا تدرى سبب إقدامه على ذلك ، وقد ظنت عندئذ أن شيئا ما قد حدث بينه وبين أميمة ، فتؤكد لها أميمة أنه انصرف من عندها بعد مقابلتهما

وهو سعيد ، فتقول لعله قابل والده واحتدم النزاع بينهما كما هى عادتهما ، وأن أباه ربما أغلظ له فى القول وقسا عليه ، مما دفعه إلى أن يفكر فى الانتحار .

* * *

فسألتها أميمة : لماذا لم تذهب معه إلى المستشفى بعد أن طعن فى بيتها !

فقالت : إنها لا تحتمل أن تراه وهو يحمل إلى غرفة العمليات أو وهو خارج منها تحت تأثير البنج ، فهو وحيدها ، أما وقد انتهت العملية فهى قادمة لتطمئن عليه .

ويظهر فى وجه أميمة كأنها غير مقتنعة بحديثها فتسألها : لماذا لم تخبرها بما حدث ؟

فقالت أبكار إن الحادثة كانت مفاجأة لها أذهلتها عن كل شىء وشلت تفكيرها .

ويأتى إسماعيل بك ويذهب إلى غرفة ابنه فى المستشفى ، وتأتى أبكار وتذهب إلى غرفته ، وينظر إسماعيل إلى زوجته نظرة كلها عداوة ، وتبادله أبكار نظرات زاخرة بالمقت والكراهية . وتقف أميمة بينهما كأنما تحاول أن تكون حائلا بين كراهيتهما .

ويلقى كل منهما نظرة على ابنهما المسجى ، ويسأل إسماعيل أميمة عما قاله الدكتور .

فتقول له : إنه قال إن الجرح بسيط .

ويسأل إسماعيل : لماذا ينتحر يسرى ؟

وينظر إلى الأم فى ريبة ويقول فى حنق : من كانت هذه أمه فلابد أن ينتحر .

وتهم أبكار بأن ترد عليه ، ولكن أميمة تنظر إليها نظرة رجاء ثم تنظر إلى يسرى كأنها تقول لها : اسكتى أرجوك إكراما له .

وينسحب إسماعيل وهو يقول لأميمة : إنه قادم فى الصباح ليطمئن على ابنه.

وعندما يختفى إسماعيل تقول أبكار لأميمة : إنه سبب كل البلاء الذى يعيشون فيه ، فقد حطم بقسوته كل شىء . . زوجه وابنه وبيته . وكان دائما مجنونا فى كل تصرفاته ، وهو السبب الذى وصل بيسرى إلى ما وصل إليه .

***

وفى الصباح نرى يسرى فى سريره ، وممرضة تحقنه بابرة تقويه ، وتدخل أميمة وهى هاشة وتصافحه ، فاذا به يقابلها فى فتور وهو مطرق ، يحس إحساس من يحمل على عاتقه ذنبا كبيرا .

تسأله أميمة عما حدث بعد أن تركها بالأمس ، فيشيح بوجهه عنها ، فتقول له إن من حقها أن تعرف كل شىء ، فهى عما قريب ستصبح شريكة حياته :

فيزداد انفعاله ، وتلح عليه دون جدوى . : ولكنها لا تيأس وتقول له : إنها واثقة من أنه لم يقدم على الانتحار ، وأنها لابد أن تعرف كل ما حدث ، لأن ذلك من حقها :

ويدخل الأب وهو يحمل هدية ، ويتجه إلى ابنه ويلاطفه ، ولكن يسرى يظل صامتا وأميمة ترقب ما يجرى بينهما فى اهتمام شديد . وتنتهى زيارة الأب وتعاود أميمة أسئلتها ، فتسأله هل قابل أباه بعد أن تركها وقبل أن يصل إلى بيت أمه ؟ فيطرق ولا يحرك ساكنا ، فتلح عليه أن يريحها وأن يريح نفسه من ذلك الصمت الذى قد يقتله .

وتدخل الأم وتنظر إلى يسرى . وما إن يراها يسرى حتى يكفهر وجهه ويظهر فيه ألم شديد ، وينظر إلى الحائط ولا ينظر إليها . تصافح الأم أميمة وتذهب إلى السرير وتجلس على حافته وتحاول أن تكلم ابنها كلاما

رقيقا . فتشتد انفعالات يسرى ، وتلحظ أميمة ما يقاسيه من أسى فتطلب من أمه أن تتركه يستريح .

وتخرج الأم وهي تكرر أن الأب هو سبب كل هذا البلاء .

وتقف أميمة تفكر وتلمع فى رأسها فكرة وتتحرك لتنفيذها .

– ٢ –

نرى الأب فى بيته ، وأميمة تطلب مقابلته ، وعندما تجتمع به تخبره أنها تحب يسرى وأنها لا تريد أن تفقده .

فيقول لها الأب : إنه لم يحب أحدا فى الدنيا مثلما يحبه ، وأنه يتمنى أن تسعده أميمة وأن تحقق له الهدوء الذى لم يذق طعمه يوما .

ويبدو الرجل كأنما يكاد يذوب رقة ، حتى تدهش أميمة لحديثه وتطمئن إليه وتقول له : إنها تريد أن تعرف كل ما كان من أمر يسرى وكل ما مر به ، حتى تجاهد لتمحو من صدره الآثار السيئة التى خلفتها فى نفسه الأيام القاسية التى مرت به .

ويخبرها إسماعيل أنه سيذكر لها كل شىء ، فتؤكد له أنها يهمها أن تعرف كل شىء ، ويبدأ إسماعيل فى سرد قصته :

— فى سنة ١٩٣٧ كنت أعمل مهندسا فى شركة مبانى ، وقد كلفتنى الشركة بمراقبة عملية بناء عمارة لها فى الإسكندرية . وكنا فى شهور الصيف ، ودعانى أحد أصحاب العمارة لحفل فى منزله وذهبت ، ولفتت أبكار نظرى ، وتحدثت معها وعرفت أنها من القاهرة وأنها تمضى الصيف مع أهلها فى الإسكندرية وأنها صديقة لابنة الداعى . ولم ينته الحفل إلا وقد طلبت منها أن أقابلها ، ولكنها رفضت مقابلتى فزاد ذلك من تعلقى بها . وكنت قد

عرفت أنها تنزل بسيدى بشر فذهبت فى اليوم التالى إلى هناك وجعلت أنقب عنها على البلاج .

ومرت أيام وأنا أبحث عنها ، وأخيرا التقيت بها وتحدثنا وطلبت منها أن أقابلها ، ولكنها أخبرتنى أنها عائدة إلى القاهرة وعرفت منها عنوانها .

وقابلتها فى القاهرة ، ولفت نظرى هدوؤها ودماثة خلقها ، ولما كنت أعلم أن فىّ حدة فقد اعتقدت أن أبكار هى خير من تصلح لى . وعرضت عليها الزواج فرحبت ، ولما أخبرت أهلى عارضوا فى هذا الزواج وطلبوا منى أن أتريث وألا أندفع ، فعيبى أنى أسير وراء أهوائى . . ولم أستمع لاعتراضات أهلى وتزوجتها .

ومرت شهور كلها حب وسعادة ، ومرت الأيام وإذا بى أكتشف أن الهدوء الذى سحرنى إن هو إلا هدوء مفتعل ، وبدت لى أبكار على حقيقتها ، فهى تريد أن تسيطر على . . أن تجعلنى خاتما فى أصبعها .

وفى ذات ليلة طلبت منى أن تسافر وحدها لزيارة خالة لها وتستأذننى بطريقة ناعمة بأن أسمح لها أن تغيب عندها أسبوعا ، فرفضت .

ولم يعجبها رفضى ، وإذا بالقطة الوديعة تثور وتتهمنى بأنى أحاول أن أحبسها ، وأن ما أفعله معها لا يدل على ثقة .

وثارت وثرت ، وكانت هذه أول ثورة تقوم بيننا ، وتبعتها ثورات متلاحقة .

ولاحظت فى وجهها أثر جرح وسألتها عنه ، فقالت لى إنها كانت تحمل طاسة نحاسية وهى طفلة ، وقد تدحرجت على السلم وفى يدها الطاسة فجرحت الطاسة جبهتها وتركت فيها ذلك الأثر . ومالت على فى حنان زائد وأخبرتنى أنها حامل ففرحت ، وأصبحت أخشى عليها حتى إننى كنت أتوسل إليها ألا تقوم من سريرها وكنت أقوم أنا بخدمتها .

وأخيرا جاء ابننا يسرى ، وحسبت أن الدنيا ابتسمت لى :

ولكن القدر كان يخفى لى مفاجأة قاسية ، فقد جاءتنى رسالة من مجهول تخبرنى أن أبكار كانت صديقة لشاب قبلى ، وأنهما اختلفا يوما فأطلق عليها الرصاص ، وقد طاشت الرصاصة ولكنها خدشت جبهتها وتركت فيها أثرا لا يزال باقيا .

وبدأت الغيرة تنهش قلبى ، ولم أقو على احتمال ذلك الشك فدخلت عليها وهى تحمل يسرى ونزعته منها وقدمت إليها الرسالة ، فلما قرأتها صاحت بأن أهلى يكرهونها وأنهم يريدون أن يفسدوا حياتها وأن ما جاء فى الرسالة كذب وافتراء ، وراحت تقسم أنها بريئة . ولم تكتف بذلك بل راحت تتهمنى بأننى أصبحت كأهلى لا أحبها . ووقفت حائرا لا أدرى ماذا أفعل ، وكنت فى قرارة نفسى أميل لتصديقها ولكن بذور الشك بذرت فى أعماقى .

وكلفتنى الشركة التى أعمل بها بالسفر إلى الخارج للتعاقد على أدوات لازمة لها ، وفكرت فى أن أعتذر عن السفر فقد أصبحت أخشى أن أترك أبكار بعيدة عنى . وأخيرا رأيت أن أكلف صالح — زميلى فى الشركة — بأن يسهر على راحتها وراحة يسرى إلى أن أعود . وطمأننى صالح ، وأخبرنى أن زوجته سنية لن تترك أبكار وحدها . وشكرت صالح ، وسافرت وأنا مطمئن .

وعدت من سفرى وأنا أحمل الهدايا لأبكار ويسرى : وشكرت صالح وسنية على عنايتهما بأهلى ، وما كدت أستقر حتى رأيت أبكار واقفة أمام المرآة ترتدى ثوبا فى لون الورد يفضح مفاتنها .

فسألتها : إلى أين هى ذاهبة ؟

فقالت : إنها ذاهبة إلى طبيب الأسنان .

فقلت لها : إن الذاهب إلى طبيب الأسنان لا يتزين كل هذه الزينة :

فقالت : إن ذلك ليس جديدا عليها ، إنها طوال حياتها تهتم بزينتها ، ولكنها الغيرة هى التى أصبحت تتحكم فى كل تصرفاتى .

ولم تكتف بذلك بل قالت : طلقنى إن كنت لا تثق فى ، ودعنى أخرج .

وثارت وثرت وأقسمت أنها لن تخرج :

وقابلت صالح وسألته عما كانت تفعل أبكار فى غيابى ؟

فقال لى : إنها كانت تذهب إلى طبيب الأسنان، وطمأننى أنه لم يدعها أبدا تخرج وحدها ، بل كانت تخرج دائما ومعها سنية .

واشتريت كلبا من النوع الوولف ، وكان يلعب مع يسرى ، وأرادت أن تدلل الكلب ولكننى نهيتها وأخبرتها أن التدليل يفسد حتى الكلاب ، وقلت لها إننى لن أسمح أبدا بتدليل يسرى ، وسأقهر حبى له إن كان سيكون سببا فى إفساده ، لأننى أريد أن يشب رجلا .

ومرت الأيام وصالح وسنية يترددان علينا ، وتوطدت الصداقة بيننا حتى إننا كثيرا ما كنا نمضى الليالى معا . وتعلق يسرى بصالح .

وتقرر أن يذهب يسرى إلى المدرسة ، وفى الليلة السابقة لليوم الذى سيذهب فيه جاء صالح وسنية وهما يحملان له هدية . وفى الصباح الباكر ذهب يسرى مع صالح إلى المدرسة ، ولما عاد صالح قال لى إنه سجل نفسه ولى أمر التلميذ يسرى . وقد سرنى ذلك لأننى مشغول ، ولأننى أكره أن أذهب إلى المدارس أو المحال لشراء أشياء لى ، فما بالك بشراء أشياء لطفل لا يعرف ماذا يريد ؟

وبعد أن خرج صالح ثارت أبكار وأنكرت ذلك الوضع ، وضايقنى اهتمامها بأشياء تافهة كهذه فثرت وقلت لها إنى حر فى تصرفاتى .

وعكرنا — بالنزاع الذى شب بيننا — السعادة التى أحسسناها بذهاب يسرى إلى المدرسة .

وأصبح يسرى فى المدرسة الثانوية ، وطرده ناظر المدرسة لأنه ضرب طالبا معه ، وطلب منه إحضار ولى أمره . فذهب إلى صالح الذى انطلق معه إلى المدرسة وسوى الموضوع .

وفى الليل أخبرت سنية أبكار بما حدث ، فجاءت أبكار إلى تتهمنى أننى أهمل ابنى . ولم تكتف بذلك بل قالت إننى لا أحبه ، فثرت فى وجهها وهددتها بأننى سأقف منها موقفا آخر لو حاولت أن تغرس كراهيتى فى قلب ابنى .

وفى الليلة التالية تأهبنا للخروج ، وطلبت من يسرى أن يستعد للخروج معنا . وإذا بأبكار ترفض ذلك فى شدة بحجة أن على يسرى أن يهتم بدروسه . وقلت لها صراحة إنها لا تحب أن تخرج مع يسرى لأنه أصبح فى مثل طولها ، ولا تحب أن يعرف الناس أنها أصبحت أما لشاب مثله ، وكانت هذه هى الحقيقة .

وعاد يسرى يخلع ثيابه وهو مهيض الجناح ، وأنا أحس عطفا عليه ، ولكننى لم أشأ أن أزيد الجو اكفهرارا فخرجت معها وتركت يسرى خلفى ، وإن كنت فى ضيق من أمرى .

وكونت شركة مقاولات وعمل صالح معى ، وكان على أن أسافر إلى الخارج لأعمال تتعلق بالشركة . وقلت لها ذلك فاذا بها تقول لى إننى أكثر من السفر إلى بلجيكا لأننى أحب غانية هناك ، وأنها على علم بهذه العلاقة ، وأنها لم تعد تستطيع أن تسكت على خياناتى .

ودخل يسرى ووقف يصغى إلى الاتهامات التى راحت تكيلها لى ، وهممت بأن أضربها وإذا بيسرى يعترضنى ويقف إلى جوارها ويقول لى

إنها لم تعد وحدها أمامى ، وأنه أصبح من واجبه أن يحميها منى .

وذهلت ، فقد نجحت فى أن تكسب قلبه وتوغر صدره على .

كنت أحب يسرى من كل قلبى وكان كل دنياى ، فضاقت الدنيا بى لما عرفت أنه أصبح ينظر إلى كعدو له ولأمه ، وفكرت فى أن أطلقها بعد ذلك الذى فعلته وأستريح . ولكن صالح ظل يقنعنى بأن أتريث وأن أتحمل إكراما ليسرى ، وأن يسرى سيعرف يوما مقدار حبى له :

ودخل يسرى الجامعة ، وكان صالح ولى أمره كما كان فى الثانوى ، ولم تثر أبكار فقد اعتادت ذلك الوضع بل أصبحت تلجأ إلى صالح فى كل شئونها ، حتى إنها كلفته مرة بأن يمر على الخياطة وأن يحضر لها ثيابها ، وقد ضايقنى ذلك ولكننى تركت الأمر يمر :

وجاءت أبكار ذات ليلة وهى متهللة الأسارير ، وقالت لى إن يسرى أحب إحدى زميلاته فى كلية الحقوق ، وأنه يريد أن يتزوج منها بعد أن ينتهى من دراسته ، وضايقنى أنه لم يفاتحنى فى هذا الموضوع وآثر أن يخاطب أمه فيه ، وكتمت غيظى وذهبت إلى يسرى وقلت له إنه يستطيع أن يدعو صديقته لزيارتنا .

وجاء يسرى وجئت معه ، وقد بذلت كل جهدى لأستميله إلى ولأرضيه . ولما رأيتك أعجبتنى شخصيتك وتمنيت لكما التوفيق ، وكل ما ذكرته أننى أوصيتكما بأن تلتفتا إلى دروسكما وأن يكون ذلك الحب حافزا لكما على النجاح . . وما حسبت أننى ارتكبت حماقة .

وإذا بأبكار تجذبنى بعيدا وتقول لى إننى أسأت إليكما وأننى جرحت شعوركما دون أن أشعر ، فقلت لها إننى لا أوافق على أن تحجر على تصرفاتى ولا على أن تنصب من نفسها محاسبا لى على كل ما أفعل : وكتمت غيظى وسكت حتى لا أعكر صفو أول لقاء بيننا :

ولم يبق على تخرج يسرى إلا شهور ، واضطررت إلى أن أسافر إلى بلجيكا وتركت يسرى وأبكار فى رعاية صالح وزوجته .

ولما عدت قابلتنى أبكار مقابلة فاترة . . وعندما اجتمعنا للعشاء أنا وهى ويسرى سألتنى عن عشيقتى البلجيكية ، ولم أحس إلا وأنا ألطمها على وجهها ، وإذا بيسرى ينهض وفى يده سكين ويحاول أن يطعننى بها ، فأمسكت يده وانتزعت السكين منه ولكمته فى وجهه ، فسقط على الأرض . فارتمت فوقه وهى تصرخ : ابنى . . ابنى ! . . ثم قامت إلى وأنشبت أظافرها فى عنقى ، وهى تصرخ : وحش . . وحش . . أنا أكرهك . . طلقنى . . طلقنى :

وانقطع آخر خيط كان يربط بيننا فطلقتها .

وانتظرت وأنا قلق ما سيفعله يسرى ، فاذا به ينحاز إلى صفها فيخرج معها ويذهب ولا أعود أراه .

وأطرق إسماعيل وقال : كنا ضحية هذه المرأة . . أنا ويسرى .

فقالت له أميمة : ألم يقابلك يسرى بالأمس ؟

فقال إسماعيل : لم أره منذ أكثر من أسبوعين ، ذهبت إليه بعد أن حصل على الليسانس وهنأته ، وقد تلقى تهنئتى فى فتور . أرجوك يا أميمة أن تقولى له إنى أحبه . . وكنت دائما أحبه ، وربما كان عيبى أننى لا أعرف كيف أعبر عن حبى . أحقا يا أميمة كنت أسىء إليكما كلما اجتمعت بكما ؟

فقالت له : أبدا يا عمى :

فقال إسماعيل فى إخلاص : ليته يعرف ما يكنه له قلبى من حب : أوصل به اليأس إلى أن ينتحر ؟ أقسونا عليه حقا إلى هذا الحد ؟

وقامت أميمة واستأذنت وإسماعيل يتوسل إليها أن تعيد إلى قلب يسرى محبته له :

— ٣ —

وذهبت أميمة إلى بيت أبكار ، ولما قابلتها ظهر على أبكار الدهش والإنكار ، وسألت فى لهفة عن يسرى .

فطمأنتها أميمة عليه ، وقالت لها إنها ما جاءت إلا لتعرف كل الظروف التى مرت على الشاب الذى سيكون عما قريب زوجا لها ، ورجت أبكار أن تصارحها بالحقيقة ، فإنها إن أخفت عنها شيئا فستعرفه يوما ما من زوجها ، وإن إلمامها بكل شىء قد يعاونها على أن تخرج الرجل الذى أحبته من الأزمة النفسية التى يمر بها .

وقالت أميمة إن ما يحز فى نفسها أنها كلما التقت بيسرى تستشعر أنه غير سعيد ، وأحيانا تكون ابتسامته أقسى على قلبها من طعنة سكين . والتمست من أمه أن تحدثها كأنثى لأنثى ، فهى تعرف متى تلف الأنثى وتدور :

وقالت أبكار إنها كانت ضحية رجل مجنون ، ومن سوء حظ يسرى أن يكون ذلك الرجل أباه ، فقد تزوجته وهى تحسب أنها تزوجت رجلا رقيقا ، وبعد انقضاء شهر واحد اكتشفت أنها تزوجت رجلا بلا قلب : فقد وقفت ذات صباح فى شباك تنظر إلى الطريق ، فجاء كوحش كاسر ينهرها ويسألها عن الشاب الذى يقطن أمامهم وأغلق الشباك فى شدة .

وسألته يوما أن تذهب وحدها لشراء بعض حاجاتها ، فقال لها إن زوجته لا تخرج إلا معه .

ورضخت لمشيئته ولم أكن أخرج إلا معه وتحت حراسته ، ولكنه كان يسير بعيدا عنى وأنا أتبعها ، كأنما كان يخجل أن يظهر معى فى الطريق ، وعرفت أننى تزوجت رجلا تنهش الغيرة قلبه ، وينظر إلى المرأة نظرة أجداده إلى الحريم :

وذهبنا مرة إلى بيت أبيه ، وكنت أعلم أن أهله يكرهوننى دون أن

أدرى سببا لهذه الكراهية . وكان يتمس منى قبل أن نذهب أن أكون رقيقة معهم ، ولم أكن أعرف سببا واحدا لخوفه ألا أكون رقيقة ، ولكننى لما التقيت بأخته ورأيت نظراتها التى كانت زاخرة بالكراهية لكل شىء ولكل ما تقع عليه عيناها ، عرفت لماذا كان يتوسل إلى بأن أكون رقيقة . ودار الحديث بينى وبين أخته فكان حديثا كله غمز ، حتى إنها طعنت فى ماضى صراحة أكثر من مرة .

ولم أحتمل إهانتها فحاولت أن أوقفها عند حدها فغضبت ، وإذا بإسماعيل يثور ويتهمنى بأننى أهنت أخته ، وضايقنى أنه لم يثر لكرامتى التى جرحت فى بيت أبيه ، فثرت فى وجهه ، وكانت تلك أول مشاجرة سافرة بيننا ، وقد صممت بعد ذلك ألا أذهب إلى بيت أبيه أبدا .

وكانت تقوم بخدمتنا فتاة من الريف ، وقد أرسلها مرة لتحضر له قميصا من عند المكوجى ، وغابت الفتاة ولما عادت سألها عن سبب غيابها فاعتذرت بأنها اضطرت أن تنتظر حتى يكوى الرجل القميص . وإذا به يسبها ويطعنها فى شرفها ثم يقوم إليها ويضربها حتى يسيل الدم منها ، وأنا أحاول أن أحول بينه وبينها . وبعد أن هدأ قلت له إذا كان لا يريدها فليطردها ، أما أن يضربها فهذا ما لا أوافق عليه . فقال لى إن كل النساء لا يسرن إلا بالضرب . وكانت مشادة عنيفة بينى وبينه .

وأصبحت المشادات العنيفة طابع البيت ، وأصبحنا نختلف فى كل شىء وعلى كل شىء حتى على الطعام .

وحملت وأخبرته بحملى فسره الخبر . وحسبت أن هذا الحادث سيغير من طباعه .

أصبح رقيقا معى ولكن لم يستمر ذلك إلا أياما قليلة ، عاد بعدها إلى طبعه .

كنا جالسين ذات مساء نتسامر وأردت أن أسليه ، فقلت له إن كان ما فى بطنى بنتا نسميها بسمة ، فاذا به يثور ويقول : إنى لا أحب البنات ؟ أريده ولدا ، فقلت له : وإن جاء بنتا ؟ قال : أكتم أنفاسك وأنفاسها ، واضطر أن يضحك ، ولكننى انقبضت وأصبحت أعيش فى قلق خشية أن أضع بنتا وأخيب أمله فتزداد ضراوته وقسوته :

وجاءت آلام الوضع وكانت آلام نفسى أقسى وأمر ، حتى إذا ما تم الوضع وسمعت أننى جئت بولد نسيت كل آلامى واسترحت . وفاض سرورى لما دخل على وقبلنى وقال لى : مبارك !

ولم تدم تلك السعادة طويلا ، فنى ذات ليلة بينما كنا نائمين راح يسرى يبكى ، وحاولت أن أسكته دون جدوى . وراح هو يتقلب فى السرير كالمحموم ثم قال فى حدة : اذهبى أنت وابنك من هنا ، أريد أن أنام : وانسحبت إلى غرفة بعيدة وأنا أنتفض من البرد .

وجاء يوما وقال لى إنه مضطر للسفر وأنه يريد منى أن أقسم على المصحف ألا أغادر البيت ما دام غائبا عنه . فاعترضت لأنه قد يحدث ما يضطرنى إلى الخروج فأحنث فى قسمى . ولكنه أصر فاضطررت تحت إلحاحه أن أردد وراءه القسم بأننى لن أغادر البيت إلى أن يعود . ووضع صديقه صالح حارسا على ، وأرسل إلى صالح زوجته لتؤنس وحدتى ، وراحت سنية تحدثنى عن صالح وتعقد المقارنات بينه وبين زوجى ، وكانت تفضله على زوجى ، فهو رجل وإن لم يكن طموحا كزوجى إلا أنه رقيق يعرف حقوق زوجه ويقوم بواجباته الزوجية على خير وجه ! وراحت تتحدث عن ثقته فيها كأنما كانت تعرض تلميحا بعدم ثقة زوجى بى .

وأحسست ألما فى أسنانى وكان لابد أن أذهب إلى الطبيب ، وأخبرت سنية بعزمى فذهبت وقالت لزوجها ، وإذا به يأتى ويقابلنى بعد أن ارتديت

ثوبا جديدا فى لون الورد ، وقال لى إنه يعرف إسماعيل جيدا وأنه من الخير أن يأتى بالطبيب ليعودنى فى البيت . ولكننى رفضت الفكرة لأنه من السخف أن يأتى طبيب أسنان لعيادة مريض فى بيته .

ونظر إلى صالح نظرة طويلة وقال : معذور إسماعيل إذا كان يغار عليك . هل لابد من ارتداء هذا الثوب إذا كنت ذاهبة إلى الطبيب ؟ ولم يغضبنى قوله بل أحسست شيئا من الراحة لذلك الشعور بالسخرية من سنية الذى تولد فى جوفى ، فهى واثقة فى زوجها ثقة عمياء وها هو ذا يغازلنى وإن كان حديثه مغلفا برقة وأدب ! ووافق صالح على أن أذهب إلى الطبيب على أن تذهب سنية معى ، وأحسست فى تلك اللحظة أننى مكبلة بقيود من حديد .

وعاد إسماعيل من سفره وأنا أتردد على طبيب الأسنان . ووقفت أمام المرآة أصلح من زينتى وقد ارتديت ثوبى الوردى ، فسألنى إلى أين أنا ذاهبة ؟ فقلت له إلى طبيب الأسنان . فقال لى وهل من تذهب إلى طبيب الأسنان تتزين كل هذه الزينة ؟ فقلت له إننى أتزين دائما كلما خرجت . فقال لى لن تخرجى بهذا الثوب . فأصررت على أن أخرج به فهجم على وراح يمزق الثوب وهو يصيح : وما أدرانى أن ذلك الطبيب ليس عشيقك . وارتفع صراخنا وشجارنا ولما يمض على عودته أكثر من ليلة واحدة :

وجاء إلى البيت بكلب وولف ، وكان الكلب يلعب مع يسرى فكان فى أثناء لعبه يصعد على الكنبة ويقفز من فوقها فنهاه عن ذلك . فقلت له دعه إنه يداعب يسرى ، فقال لى لابد أن يطيع أوامرى . وقام وعاد بسيخ محمى ولسع به الكلب ، فراح الكلب يصرخ ويسرى يبكى ، وأنا أهتف فى هستيريا : مجنون . . مجنون .

وجلس وأمر الكلب بعدها أن يأتى ويجلس تحت قدميه ، فجاء الكلب صاغرا وسجد بين رجليه وهو يضحك فى انتصار .

وترادف تعذيبه للكلب حتى إننى أشفقت عليه واضطررت أن أرسل به بعيدا عنه لأنقذه من يد ذلك المجنون . وعاد ولم نجد كلبه فراح يبحث عنه فى كل مكان ويسألنى عنه . فلما قلت له إنه خرج دون أن أراه رمانى بالإهمال واتهمنى بأننى لا أصلح لشىء . .

وجاء يسرى وهو طفل صغير يعبث فى كتبه ، فنهره وطرده من الغرفة . فخرج وهو يبكى ورفض أن يأتى إلى وأنا أمه ، وذهب إلى الخادم وارتمى فى حضنها وهو يبكى ، وأصبحت الخادم منذ ذلك اليوم هى ملاذه كلما غضب منا ، وأصبحت أخشى أن يتعلق بها دونى فكنت أتودد إليه بتقديم الحلوى والشيكولاته إليه والإغضاء عن أخطائه .

وتأهبنا لأن ندخل يسرى المدرسة ، وكنت أحلم بأن نذهب به أول يوم أنا وأبوه ، وإذا بى أفاجأ بأنه تنازل عن أبوته لابنه لصايقه صالح . ولم يعجبنى ذلك التصرف منه فاعترضت ، وقلت له إذا كان هو لا يريد أن يذهب بابنه إلى المدرسة فإنه يسرنى أن أذهب أنا معه ، ولكنه اعترض وأصر على أن يترك أمره لصالح . وعرضت أن أذهب مع صالح ولكنه رفض أن أخرج مع رجل غريب ، فقلت له ساخرة : كيف يقبل أن أقابله فى البيت ويرفض أن أخرج معه ؟ وضايقته ملاحظتى ولكنه أصر على أن يذهب يسرى مع صالح وحده .

- ٤ -

وجاء صالح يوما وأخذ يسرى وذهب به إلى حديقة الحيوان ، ولما عاد يسرى راح يقص علينا كل ما رأى وأنا أتظاهر بالسرور ، حتى إذا ما ابتعد عنا قلت لإسماعيل : كيف تقبل أن يشب يسرى يتيما ونحن أحياء ؟ وتطورت المناقشة إلى مشاجرة حامية ، وجاء يسرى ينظر ثم بكى خوفا فاضطررنا أن نكف عن الشجار حتى لا يزداد فزعه .

ومرت السنون وكأننا أنا وإسماعيل عدوان فى بيت واحد . وكان على يسرى أن يذهب إلى المدرسة الثانوية فجاء إلى وقال لى : متى سيشترى صالح لى ملابسى وأدواتى ؟ وأحسست فى صوته مرارة فقلت له : ولماذا يشترى لك صالح حاجاتك ؟ فقال فى مرارة : لأنه ولى أمرى . وضايقنى ذلك فذهبت إلى إسماعيل وتوسلت إليه أن يذهب مع ابنه ، أن يعتنى به ، أن يجعله يشعر أنه أبوه ، ولكن إسماعيل سخر منى ومن تفاهاتى . ودق التليفون وطلب صالح وكافه بتلبية رغبات ابنه . وكان يسرى واقفا عند الباب يصغى إلى المكالمة ، فقرأت فى وجهه القهر الشديد .

وأصبح صالح وسنية قطعة من حياتنا ، وذات ليلة خرج إسماعيل وصالح ودخل يسرى يستذكر دروسه ، وبقيت أنا وسنية وإذا بها تتحدث عن زوجى وعن علاقاته فى الخارج ، وتقول لى إنه يحب فى بلجيكا فتاة شقراء وأنه يراسلها ، ووعدتنى بأن تعثر لى على صورة من صورها .

وقمت بعد خروجها كالمجنونة أنقب فى كل أوراقه فلم أعثر على شىء ، ولما عاد وخلع ثيابه رحت أبحث فى جيوبه عن دليل دون جدوى ، وكتمت صدرى على النار التى تنهشه .

وجاء إلى ذات يوم وقال لى إنه كون شركة مقاولات وأن صالح سيعمل معه فى الشركة الحديدة ، وأنه مضطر إلى السفر إلى بلجيكا . فسألته ولماذا يفضل السفر دائماً إلى بلجيكا ؟ فقال لى : لأن له أصدقاء هناك ، وتذكرت ما قالته لى سنية فقلت له : بل صديقات . وأنكر ذلك فقلت له إننى أعلم أنه يحب شقراء بلجيكية وأنه يسافر من أجلها وأننى لم أعد أحتمل خياناته . وجاء يسرى يجرى فألقاه بهم بضربى فاعترضه وتوسل إليه أن يكف عن الصياح لأنه أصبح يخجل من نظرات الناس إليه . وقال له يسرى : كل الأبناء سعداء بآبائهم إلا هو . . لماذا كتب عليه أن يعيش فى جحيم ؟ وقال إسماعيل : أمك هى السبب فى كل هذا النكد . فقلت له : بل أبوك أس كل شقاء . وارتفعت أصواتنا مرة أخرى ، وبكى يسرى فثار أبوه وضربه بحجة أن البكاء للنساء ، فوقف يسرى إلى جوارى لأول مرة ضد أبيه صراحة وقال له : سأحميها منك وإنى أحذرك أن تمد يدك عليها بعد الآن .

ودخل يسرى الجامعة ، وكنت كل يوم أطيب خاطره وألتمس منه أن يصبر فلم يعد أمامه إلا سنوات قليلة ويصبح رجلا من حقه أن يبنى بيتا مستقلا . وراح يبثنى آماله ويصف لى البيت الذى يرجو أن يبنيه ، إنه سيبذل كل جهد ليجنب أبناءه ما قاساه فى حياته . سيكرس لهم كل وقته وسيضع زوجته فى عينيه . وقلت له : كم ابنا ستنجب ؟ فقال لى : أكبر عدد من الأبناء حتى نشغل بهم عن أنفسنا ونهبهم كل ما فى قلوبنا من حنان .

ودخل إسماعيل كما يدخل هادم اللذات ، ففر يسرى من وجهه منفعلا بأنه على موعد مع أحد أصدقائه ، وإذا بإسماعيل يستجوبه عن ذلك الصديق وعن أصدقائه ، ويلقنه درسا عن أصدقاء السوء وينهاه عن مصاحبتهم بطريقة تجلب إلى النفس الاشمئزاز والضيق .

وجاء إلى يسرى يوما وهو يكاد يطير من الفرح وقال لى : إنه أحب

زميلة له فى الكلية . وراح يصفها لى فى سرور ويعبر عن مشاعره نحوها كأنما لم يخفق بالحب قلب إنسان قبله ، وفرحت وأخبرت إسماعيل بذلك ، وإذا به يقول لى : إننى أحاول أن أسرق يسرى منه ، إننى أتقرب إليه وإن كان فى ذلك التقرب إفساده ، وأنه لا يعرف أين صالحه لذلك يتجه دائما إلى الجانب اللين . لماذا قال لك سره ولم يقله لى ؟ لأنك نجحت فى أن تجعليه ابن أمه ، وإن ابن أمه لا يمكن أن يشب رجلا أبدا .

إننى أدلله وأفسده وسيكون يسرى ضحية تدليلى إياه :

وقررنا الذهاب إلى حفلة خيرية ، وكان صالح وزوجته سيرافقاننا إلى تلك الحفلة . وقبل الذهاب إلى الحفلة اعتذر إسماعيل وقرر أن أذهب أنا ويسرى مع صالح وزوجته ، وفاتح إسماعيل يسرى فى ذلك فإذا بيسرى يعتذر ويقرر أنه لن يذهب إذا لم يذهب أبوه . فقد أصبح يخجل من الظهور مع صالح ، وقد سخر أصدقاؤه من هذا الوضع ، ولم يعد على استعداد لتحمل سخرية الناس . وقسا إسماعيل على ابنه قسوة أليمة وقال له إننى سأذهب مع صالح وزوجته ، وسيبقى الطفل المدلل فى البيت .

وذهبت وأنا مطعونة الفؤاد إلى الحفلة مع صالح وزوجته ، وكنت أحس طوال الحفلة إحساس اللقيطة التى وجدت نفسها فجأة بين أبناء شرعيين ، وهانت على حياتى منذ تلك الليلة واحتقرت كل شىء فى الوجود حتى نفسى ، وتمنيت لو أتمكن من إذلال ذلك الرجل الذى مرغنا فى الطين .

وجاء بك يسرى إلى البيت وقدمك إلينا ، وكنت أرتجف خشية أن يسىء إسماعيل إليك فقد كانت كل تصرفاته تغيظ ، وسار كل شىء على ما يرام إلى أن قدم إليك يسرى فنجان الشاى ، وسقطت من يده على الأرض قطعة الجاتوه التى كان يحملها ليضعها فى طبقك ، فصاح فيه ونهره حتى إننى تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبتلعنى .

وجاءت إلى سنية وأخبرتني أن زوجي يتأهب للسفر إلى بلجيكا لأن عشيقته أرسلت إليه تستدعيه . ودخل إسماعيل على وأخبرنى بعزمه على السفر فسكت ، وكنت أظن أنني قادرة على أن أكبح جماح غيرتى ، ولكن ما إن سافر حتى عادت الغيرة تنهش صدري وراحت سنية تؤجج نارها ، وأردت أن أفر من الجو القاتم الذى أعيش فيه فطلبت من يسرى أن يدعوك لنخرج معا . وذهبنا يومها إلى القناطر وكان يوما جميلا ممتعا تمنيت لو أن كل حياتنا تصبح مثله ، ولكن ما إن عدت إلى البيت وقابلت صالح وأخبرنى أن زوجي سيتأخر عن موعد عودته حتى عادت الغيرة تنهش صدرى ، وطلب منى صالح أن نخرج لأرفه عن نفسى ، وأصبحت أخرج من البيت كثيرا .

وعاد إسماعيل وجلست أنا وهو ويسرى حول المائدة للعشاء ، وراح إسماعيل يتحدث عن رحلته وعن نجاحه ولاحظت أنه سعيد . ولم أحتمل قسوة مشاعرى فسألته عن سهراته فقال لى : إنه لم يكن عنده وقت للسهر . كان غارقا فى العمل . وقلت له : ألم تقابل أحدا من أصدقائك ؟ فقال لى : ماذا تقصدين ؟ قلت له : صديقة مثلا ؟ قال : لم يحدث . قلت له : أعرف أن لك صديقة فى بلجيكا . وقبل أن أتم حديثى لطمنى بظهر يده على وجهى ، ولم يكتف بذلك بل لف شعرى حول يده وجذبنى حتى ركعت تحت قدميه . وثار يسرى وأراد أن يخلصنى من يده دون جدوى ، وخاف أن تزهق روحى فى يده فقال له : إن لم تتركها فسأضطر إلى أن أطعنك بالسكين .

فتركنى واتجه إلى يسرى كالمجنون وراح يضربه دون وعى ، ولم أحتمل رؤية ذلك فقمت وحاولت أن أحول بينه وبين ابنه ولم أفلح ، فرفعت الكرسى وضربته به على رأسه .

وكان الطلاق .

وذهبت أنا ويسرى إلى بيت أمى ، وأرسل إلى صالح يفاوضنى فى

تسوية الموضوع تسوية ودية . وراح صالح يتردد علينا وأحسست أن يسرى لم يعد يستريح لتردد صالح علينا . وفى ذات ليلة دخل على وطلب منى ألا أقابل صالح وإلا فسيضطر إلى طرده ، وطيبت خاطره ووعدته بعدم مقابلته بعد أن تنتهى السفارة التى بينى و بين أبيه .

و فى الليلة التى حاول الانتحار فيها تشاجر نا وقلت له : إن كان بعده عن أبيه هو سبب كآبته فليعد إليه ، فأنا واثقة أنه ابن أبيه وأنه ورث عن أبيه قسوة القلب . وأنى قررت أن أعيش وحدى ، وأن أفرض أن ابنى قد مات ، وثار وقال إنه لا يطيق هذه الحياة ، وأن من الخير له أن يفارقها . وتناول السكين وطعن بها نفسه ، فأسرعت أستدعى له الإسعاف .

وأطرقت أبكار وقالت لأميمة : إنى امرأة بائسة ، تزوجت رجلا مجنو نا أفسد حياتى وأفسد على ابنى الحبيب .

وراحت أبكار تتوسل إلى أميمة أن ترقق قلبه عليها وأن ترعاه وأن تسعده وأن تعوضه عن الحياة القاسية التى كتب عليه قدره أن يحياها .

ووعدتها أميمة خيرا وقالت لها : إن يسرى أعقل من أن يقدم على الانتحار . فقالت لها أبكار : أخشى للأسف الشديد أن يكون قد ورث عن أبيه جانبا من جنونه .

— ٥ —

وذهبت أميمة لعيادة يسرى فى المستشفى وقالت له إنها قابلت أمه وقابلت أباه ، وأن أمه وصفت لها كيف حاول أن ينتحر . وراحت تلومه على ما فعل فكيف يفكر فى أن يقضى على حياته وهو كل شىء لها فى دنياها ؟ وسألت الدكتور عن موعد مغادرة يسرى المستشفى فأخبرها أنه سيخرج بعد يومين .

وجاءت أبكار إلى ابنها ، وازور يسرى عنها وأبى أن يصغى إليها أو يبادلها الحديث . وقالت له فى توسل وهى تهم بمغادرة الغرفة إنها امرأة بائسة كانت ضحية زوج مجنون ، وكل ما ترجوه من يسرى ألا ينسى أنها أمه :

ويلوح فى وجه يسرى أعمق الأسى والانفعال .

وينقضى يومان ويخرج يسرى وأميمة تسنده ، ويتحامل يسرى على نفسه ويقول لأميمة إنه يأسف ليخبرها أنه عدل عن فكرة الزواج . فتقول له أميمة إنها لا تستطيع أن تتصور الحياة بدونه . فيخبرها يسرى أنه يخشى أن يفسد حياتها وأن من الأفضل أن ينفصلا من الآن قبل أن تنقلب حياتها جحيما ، فهو ابن اثنين يجرى الشر فى عروقهما ، وإن الدم الذى يجرى فى شرايينه إن هو إلا دمهما فيه كل شرورهما وآثامهما . ويحرضها يسرى على أن تنجو بنفسها ، ولكنها تصر على أن تبقى معه فهى تثق فيه ، وهى على يقين من أنه سيسعدها ، وسيستفيد من التجارب القاسية التى مرت به . فيقول لها إنها لا تعرف عنه شيئا . فتخبره أنها قابلت أمه وقابلت أباه وعرفت مأساة حياته . فيخبرها أن أباه روى لها وجهة نظره وأن أمه روت لها وجهة نظرها ولكنها لم تعرف الحقيقة . فتقول له إنها تريد أن تعرفها منه . فيقول لها حتى هو لا يعرف الحقيقة . فتقول له إنها تريد أن تسمع منه رأيه فيما مر به

من أحداث ، فيقول لها إن ما مر به شيء فظيع . فتصر على أن تعرفه لتحمل معه متاعبه ما دامت قد قبلت أن تكون له زوجا ، ولتحاول أن تمسح عن صدره قسوة ماضيه ، وأن تستفيد بالتجارب التى مرت به . وتستمر تلح عليه حتى يبدأ فى أن يقص عليها قصة حياته :

***

كنت ألعب فى الشقة لا أغادرها أبدا ، ووقفت وأنا صغير فى البلكون أشاهد الأولاد وهم يلعبون . واشتقت إلى أن ألعب معهم وأشاركهم مرحهم فانسللت وفتحت باب الشقة ونزلت إلى الشارع ، وكنت سعيدا لأننى فررت من السجن الذى أعيش فيه ، وجاء أبى ولم يجدنى ، وأرسل الخادمة إلى وحملتنى وأنا أضربها فى وجهها فقد كنت أحب أن ألعب مع الأولاد :

وصعدت بى إلى حيث كانت أمى وأبى ، وراح أبى يصرخ ويتوعد وهددنى بأن يضربنى إذا عدت إلى الشارع ، وقال لأمى إنه لا يريد أن أشب قذرا كأولاد الشوارع .

وأصبحت أقف فى البلكون وحدى ، أنظر إلى الأولاد وألتقط كل كلمة يتفوهون بها وأنا فى حسرة من أمرى ، والتقطت أذنى بعض السباب ، فلما جاء أبى رددت ما سمعت على مسامعه ، فما كان منه إلا أن أخرج ولاعة السجاير وأشعلها وطلب منى أن أخرج لسانى ليحرقه حتى لا أردد الكلمات البذيئة . وصرخت فى فزع وجاءت أمى تهرول واختطفتنى من أبى وأنا أحتمى بصدرها وهى ترغى وتزبد .

ومرت الأيام ودخلت المدرسة ، فكنت موضع سخرية الأولاد لأن مداركى كانت أقل من مداركهم . كانوا يتكلمون عن أشياء عادية فى المدينة وكنت أظهر جهلى بها . ولما قلت إننى لم أخرج وحدى يوما ولم أركب الترام أبدا ضحكوا وصاروا يتغامزون على .

وضحكت مرة فى الفصل ضحكة بريئة فإذا بالمدرس يقول لى : إذا كانوا يضحكون مثل هذه الضحكة فى بيتكم فيجب أن يصادر ، وضحك الأولاد وبكيت . وكرهت الحياة التى أعيشها .

ولا أدرى كيف عرف الأولاد أن صالح هو ولى أمرى على الرغم من وجود أبى على قيد الحياة ، فركبونى بسخرياتهم ، وتمادوا فى التعليق على ذلك حتى تجاوزوا كل حد .

وكنت أترك الساعات الطويلة مع الخادمة ، وكنت لا أجد صدرا حنونا غيرها فكانت تقص على قصص العفاريت . فلما أدخل غرفتى وأنام وحدى كنت أخاف وأخفى وجهى بالغطاء وأنا أرتعد .

وكان أبى وأمى يرفضان أن أخرج معهما فكنت أترك أحيانا فى الشقة وحدى ، وكانت أضواء السيارات أو أية أضواء أخرى تتسلل إلى غرفتى فيصور لى وهمى أنها عفاريت ترقص رقصاتها الشيطانية فى السقف وعلى جدران الغرفة . وكثيرا ما كنت ألتصق بالكلب الذى أحببته ليؤنس وحدتى .

وفى ذات يوم علمت أن الكلب خرج ولن يعود ، فأخذت أبكى وأمى ترجونى ألا أفعل ، وهددتنى إذا ما بكيت على الكلب أمام أبى فستطلينى بالعسل وتكتفنى وتعلقنى فى السقف ، فخشيت تهديدها وكتمت دموعى وإن كانت نفسى تتمزق أسى .

وكان لابد أن أتخذ لى صديقا فاصطفيت طفلا من سنى ، وعرض على أن أزوره فى بيته وكنت فى شوق إلى ذلك ، بيد أنى خفت ثورة أبى وأمى فطلبت منه أن يأتى إلى بيتى ليذاكر معى . وجاء وقدته إلى مكتب أبى وجلست معه وأنا أكاد أطير من السعادة ، وبعد أن انصرف نهرتنى أمى واشترك معها أبى ، وحذرانى أن آتى بأحد من الأولاد إلى البيت حتى لا أشغل عن دروسى . وأحسست قهرا ودخلت غرفتى لأذرف دموعى بعيدا عنهما .

وفى ذات ليلة كانت سنية وأمى جالستين تتسامران ، وكانت سنية تتحدث عن أبى حديثا لم أسترح له وكانت أمى تصغى إليها فى اهتمام شديد . ولما رأتنى سنية أدخل التفتت إلى وقالت : إنى أشبه أبى ومن يدرى فقد أشب مثله . فقالت لها أمى فى فزع : لا طلع ولا كان . وسمعنا أصواتا فى الخارج فقد أقبل أبى وصالح ، ودخل أبى وسلم على سنية فاذا بها تسلم عليه فى تملق شديد وتمتدحه وتطلب له طول العمر والسعادة . وكرهت سنية ، وانسحب أبى وأمى وبقيت مع صالح وسنية ، وإذا سنية تضمنى إليها وتقبلنى وتلتفت إلى صالح وتقول له : مش خسارة فيهم ؟ يا ليت كان الله قد رزقنا به .

وكبرت ودخلت المدرسة الثانوية ، وكان صالح كعهده ولى أمرى ، واشتقت إلى أن أفر من السجن الذى أعيش فيه ، فاتفقت مع بعض الأصدقاء على أن نؤجر سيارة نطوف بها فى الشوارع . وأجرنا السيارة وقدتها وأنا فى غاية السعادة ، وفى منعطف من المنعطفات اصطدمت بلورى وقادونا إلى القسم ، وكان الأولاد يرتجفون ، فكنت أطيب خاطرهم : واتصلت بصالح فجاء ودفع كل ما طلب منه وأخرجنا ، ووعدنى ألا يذكر شيئا لأبى . وأراد أن يسمع منى مديحه ، فسألنى رأيى فى ولى أمرى فقلت له إنه أعظم ولى أمر فى الوجود : . وكنت فى قرارة نفسى أشتهى أن يكون ذلك الذى جاء لإنقاذنا هو أبى . وأحسست ألما فى حلقى وعرضت نفسى على طبيب المدرسة ، فنصحنى بأن أزيل اللوز : وقررت أن أقول لأبى وكنت واثقا من أنه سيهتم بأمرى وسيصحبنى معـه إلى الطبيب ويذهب معى إلى المستشفى ، وإذا بى أسمع شجارا بين أبى وأمى فأسرعت فألفيت أمى تتهم أبى بأنه يكثر من السفر إلى بلجيكا لأنه يحب امرأة هناك : وهم أبى بأن يضرب أمى فوقفت إلى جوارها أحميها منه : وبعدها ذهبت إلى

صالح وأخذنى إلى الطبيب وأجريت لى العملية . وبعد ذلك جاء أبى وفى رفقته أمى كأنما لم يكن بينهما ذلك الشجار الذى جعل الدنيا ضيقة فى عينى .

ودخلت الجامعة ، ومرت الأيام على وتيرة واحدة إلى أن التقينا فى المكتبة . لم يدر بيننا أكثر من حديث عابر ولكننى لما عدت إلى البيت آثرت أن أمكث فى غرفتى وحدى لأعيش مع طيفك ، وقد شعرت بسعادة لم أذق مثلها من قبل وتمنيت لو أن هذه السعادة تدوم .

وعدت إلى المكتبة فى الصباح الباكر ، وأقول إننى ذهبت إليها قبل الموظفين الذين يعملون بها . وكنت أرقب فتح أبوابها فى لهفة كأنما كنت سألقاك هناك . وذهبت إلى المكان الذى كنت جالسة فيه ورحت أمرر يدى عليه فى حب وحنان ، وكان ذلك هو غاية أمانى ، وكم كانت فرحتى عندما دخلت وألقيت على تحية الصباح .

وظللت أرقب حركاتك طوال اليوم، حتى إذا ما انصرفت من الجامعة أسرعت خلفك ثم سبقتك وسرت أمامك وجعلت أتلكأ فى سيرى حتى لحقت بى والتقينا ، وأنا أتظاهر أن لقاءنا كان مصادفة .

وتكرر اللقاء بيننا ، وكنت فى الحقيقة الواحة الوارفة الظلال فى حياتى الجافة القاسية . وتعلق قلبى بك وأحسست رغبة فى أن أفضى بسعادتى لإنسان ، فكرت فى أن أذهب إلى أبى وأقص عليه قصة حبى ، ودخلت عليه وهو جالس فى مكتبه يخطط بعض رسومات . وهممت بأن أفاتحه فى الموضوع ولكن ما إن رفع رأسه وسألنى عما أريد حتى تملكنى خوف شديد وقلت له : لا أريد شيئا . وانصرفت .

وقابلت صالح وقصصت عليه — على كره منى — قصة حبى ، ونصحنى صالح أن أفاتح أبى فى هذا الموضوع فهذا سيسعده ، وما كنت أعتقد أن

هناك شيئا يمكن أن يسعد أبى . ولم أذهب إليه بل ذهبت إلى أمى وصارحتها بما يحسه قلبي ، وقرأت فى وجهها أنها لم تنشرح لحديثى وإن قامت إلى وقبلتنى .

— ٦ —

وذهبت أمى إلى أبى وعادت وقالت لى : إننا سننتظر أميمة غدا : وكدت أطير من الفرح ، وقابلتك وأفضيت إليك بالنبأ ، و ذهبت معك إلى الحلاق واشتركت فى تزيينك كأنما كان أبى وأمى هما اللذان سيتزوجانك ، فقد كنا حريصين على إرضائهما . وقبل أن ندخل البيت التمست منك أن تصفحى عن أى إساءة قد تبدو من أحدهما . وقابلانا وأنا أدعو الله فى سرى أن تنتهى الزيارة على خير ، وكنت حريصا على ألا تبدر منى أية بادرة تثير غضبهما ؛ وكان ذلك الحرص سبب اضطرابى. فما قدمت لك الشاى وحاولت أن أمسك قطعة الجاتوه حتى اضطربت يدى وسقطت منى على الأرض ، حتى نسى أبى نفسه وراح يعاملنى كما كان يعاملنى وأنا طفل فانفجر يسب ويلعن . وكظمت غيظى ، ولاحظ أبى أنه قد تجاوز حده فقام واتجه إلى وقال : أنا آسف يا يسرى . والتفت إليك وقال : تعالى أسمعك آخر الموسيقى الراقصة المنتشرة فى أوروبا . وقادنا إلى غرفة الاستقبال وأدار الموسيقى وراح يتودد إلينا ، ولم يرض ذلك أمى فتركت المكان وانصرفت غاضبة ولم تعد إلا عندما ذهبت إليها وقلت لها إننا منصرفان .

وسافر أبى وصار صالح يتردد على أمى وحده ، وكنت أحس غيرة من هذه الزيارات وأتعمد ألا أتركهما وحدهما . وفى ذات ليلة قالت لى أمى : ألا تقوم لتذاكر ؟ فقلت لها : أحس صداعا وسأمكث معكما لأنسى

صداعى ، وضاق صالح بوجودى فقام واستأذن فى الانصراف .

وذهبت أنا وأنت إلى الهرم لنشاهد عرض الضوء والصوت ، وبعد أن عدت إلى البيت لم أجد أمى وسألت عنها فعلمت أنها خرجت مع صالح . وانتظرتها حتى عادت وسألتها أين كانت ؟ فقالت لى : ليس هذا من شأنك ، وتركتنى ودخلت غرفتها .

وهممت أن أثور ولكننى آثرت أن أكظم غيظى ، ويا ليتنى ثرت ليلتها ، فلو أننى تصرفت كما يتصرف الرجال لمنعت الكارثة التى حلت بنا .

وعاد أبى ، وكانت أغلب الهدايا التى جاء بها لى . كان ذلك الرجل يحيرنى . . يغمرنى فى لحظات بحبه العارم ، ويقسو على وينكد حياتى بلا ذنب ولا جريرة حتى إننى كدت أصدق ما كانت تردده أمى من أنه مجنون .

وجلسنا نتناول عشاءنا وراح أبى يتحدث عن رحلته حديثا كله حماسة ، وراحت أمى تسأله عن المرأة التى يحبها فى بلجيكا ، وإذا بالجو يتكهرب وإذا بأبى يضرب أمى . ونسيت فى لحظة أنه أبى فأشهرت فى وجهه السكين ، فهجم على وانتزعها منى وراح يضربنى فى ثورة وجنون . ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى التليفون وطلب البوليس وهو ثائر يقول إنه مهدد بالقتل .

وجاء إلى بيتنا ضابط شاب وراح أبى يتهمنى بأننى أريد أن أقتله . وراحت أمى تقول للضابط : لا تصدقه إنه مجنون . وأراد الرجل أن يصلح بينهما وإذا بهما يتراشقان التهم حتى إن أبى قال لأمى إنه خدع فى زواجه منها . لم يكن يعلم أن لها ماضيا ، وأن عشيقها قد أطلق عليها الرصاص . ولم أحتمل إهانة أمى فصحت فيه أن يخرس ، فطلب من الضابط أن يقبض على . وقامت أمى تحول بينى وبينهما ، واقترب أبى منها فلطمته على وجهه ، فألقى فى وجهها يمين الطلاق .

وراح الضابط بهدئه ، وخرجت أنا وأمى من البيت وذهبنا إلى بيت جدتى .

وجاء صالح وزار أمى ، ونهيتها عن مقابلته فقالت لى إن أبى أرسله ليتفق معها على النفقة . وفى ذات ليلة لم أجد أمى فى البيت ، وانتظرتها فألفيتها قادمة فى سيارة صالح ، فثرت وقلت لها إنى سأخبر أبى . فقالت لى : أبوك هو الذى وضعه حارسا على ، وهو الذى قدمه إلى ، وهو الذى أرسله ليتفق معى على تسوية ما بيننا تسوية ودية ، وهو الذى تركنى له .

وأكلت الغيرة قلبى ، كانت فى أبهى زينة ولم يكن يبدو عليها أنها مطلقة . وأحسست النجاسة فى روحى فرحت أتوضأ وأقرأ القرآن ، ولكن النجاسة التى كنت أحسها لم تتطهر فأسرفت فى الوضوء وقراءة القرآن .

وفى ليلة الحادث تقابلنا ونسيت كل همومى ، ورحت أحدثك عن آمالنا ومستقبلنا واتفقنا على الزواج بعد تخرجى ، وافترقنا والسعادة ترفرف علينا . وعدت إلى البيت وفتحت غرفة الاستقبال وأضأت النور ، فألفيت أمى فى أحضان صالح . . ودارت الدنيا بى وهجمت على صالح لأزهق روحه الشريرة ، وكانت أمامه صينية عليها تفاح وأطباق وسكين ، وإذا بصالح يشهر السكين ويطعننى بها ، فسقطت على الأرض وفر صالح هاربا . وارتمت أمى علىّ لا لتضمد جراحى بل لتتوسل إلىّ ألا أتكلم وألا أفضحها فهى أمى ، وراحت تقول لى إن أبى هو السبب . . هو الذى جعلها بجنونه تتردى فى هذه الهاوية .

وكان ما رأيته بشعا لا يمكن أن ينسى أو يغتفر ، فدفعتها بعيدا عنى وقلت لها إن الموت خير من العيشة معها . وذهبت إلى الصينية وأخذت سكينا وأردت أن أطعن بها نفسى ، فاذا بها ترتمى على وتنتزع السكين منى :

وكان الوهن قد دب فى جسمى ، فسقطت على الأرض ، وأسرعت هى إلى التليفون تطلب الإسعاف .

والتفت يسرى إلى أميمة وقال لها : أميمة انجى بنفسك ، اهربى منى قبل أن تفسد كل حياتك :

فقالت له أميمة : أبدا يا حبيبى . . أنا واثقة أنك ستكون خير زوج . . تعال ننسى كل ما فات ، ولنبدأ حياتنا من جديد .

الخاتمة

١ ــ جثة فى صالون فاخر . الباب يفتح : يدخل البواب : صرخة ثم يتجه إلى التليفون يتحدث مع البوليس فى لهجة مضطربة . يخبر البوليس أنه فوجئ بصالح مقتولا .

٢ ــ البوليس فى الدار ينقب . كأسان . أعقاب سجاير . سيجارة بها أثر أحمر شفايف . . الخزانة . لا توجد سرقة . المفاتيح وبعض النقود على كومودينو . الكشف عن الجثة . انتظار تقرير الطبيب الشرعى :

٣ ــ أخذ أقوال البواب . البواب يروى بأن صالح طلب منه شراء زجاجة ويسكى ، فلما أحضرها طلب منه الانصراف ، ولا يعلم شيئا بعد ذلك : وأنه جاء فى الصباح ومعه مفتاح الفيلا ، ولما فتحها رأى صالح جثة هامدة :

٤ ــ المعاينة تثبت أن الخزانة سليمة ولم يسرق شىء . يدور التحقيق مع البواب لمعرفة ما إذا كانت هناك عداوة بينه وبين سيده وعما إذا كان هناك دافع غير السرقة يدفعه لقتله . من أقوال البواب يعرف المحقق أن إسماعيل كان شريك صالح وأن الشركة بينهما قد فصمت : يسأل المحقق عن السبب فيقول البواب إنه لا يدرى . يسأل المحقق هل خسرت الشركة ؟ يؤكد البواب أن الأشيا كانت معدن : :
يطلب المحقق التحفظ على البواب .

٥ ــ يستدعى المحقق إسماعيل ويسأله عن صالح وعن آخر مرة رآه فيها : فيخبره أنه لم يره منذ شهر من يوم أن فضت الشركة التى كانت بينهما . يسأل المحقق عن سبب فض الشركة ؟ يقول إسماعيل إنه اكتشف أن شريكه يخون الأمانة .

يسأل المحقق عن نوع الخيانة . يخبره إسماعيل فى تلجلج أن يعفيه المحقق من الإساءة إلى متوفى . المحقق يؤكد له أن الحقيقة أهم من المجاملة :

إسماعيل يروى مشادة حدثت بينه وبين صالح :

المشادة تسمع من الطرفين . إسماعيـــل يتهم صالح بأنه سرق أموال الشركة . صالح يؤكد لإسماعيل أنه يفترى عليه لينفرد بالشركة وحده بعد أن نجحت الشركة . تستمر المشادة وإسماعيل يسوق الأدلة ، يقدم إلى صالح دفاتر تثبت التزوير . صالح ينهار ويقبل أن يوقع عقد فض الشركة وصوت إسماعيل يرتفع بأنه قبل ذلك الحل منعا من الفضيحة :

يترك المحقق إسماعيل ينصرف وهو يعتذر إليه :

جملة بين المحقق وكاتب النيابة تؤكد أن أقوال إسماعيل تتفق مع أقوال البواب ، وأن أشية الشركة كانت معلن .

٦ — المحقق عند شركة إسماعيل يبحث عن صاحبة السيجارة التى كانت تتناول الخمر مع صالح . المحقق يسأل بعض العمال عن العلاقة بين الشريكين :
أحد العمال يهمس له أن الشركة قد فضت لعلاقة كانت بين زوجة إسماعيل وصالح :

٧ — المحقق يذهب إلى بيت إسماعيل ويسأل عن الهانم . البواب يخبره أنها قد طلقت ويعطيه عنوانها الجديد .

٨ — المحقق مع أبكار زوجة إسماعيل . يحدثها فى رقة أولا . تروغ منه وتدعى أن كل علاقة كانت بينها وبين صالح لا تتعدى علاقة زوجة بشريك زوجها. يواجهها بالإشاعة التى تقول إنه كانت هناك علاقة بينها وبين صالح . تنكر ذلك فى شدة وتؤكد أن مثل هذا القول يسىء إلى ابنها.
يسألها عن سبب طلاقها تخبره بأنهما منذ أن تزوجا كانا على خلاف وتبدأ فى سرد تاريخ حياتها مع زوجها .

المحقق يقول لها انه عثر فى مكان الجريمة على دليل مادى يؤكد أنها هى صاحبة السيجارة ، وأنها هى التى كانت مع القتيل ساعة ارتكاب الجريمة .

٩ ـ نرى يسرى فى حالة ذهول تام ، ونرى أميمة وهى تحاول أن تخرجه من ذهوله ، وتقول له انها تحبه ، وأنها لاتستطيع أن تعيش بلونه . . ولكنه لا يلبث بعد طول الصمت أن ينهار ويهذى بكلمات غير مفهومة ، ثم يبكى .. ثم يضحك ، فيستدعى له الطبيب ، ويفحص عنه ، فيقرر أنه أصيب بأنهيار عصبى شديد ، وينصح بنقله الى مستشفى الأمراض النفسية .

١٠ ـ تعلم أبكار بما وصلت اليه حالة ابنها ، وانه مهدد بالجنون، وتعلم بما يتهددها هى نفسها من الفضيحة .. فتقرر الانتحار والتخلص من حياتها، وتقول انها هى ـ باستهتارها ـ كانت السبب فيما جرى لابنها . وتنتحر أبكار بتناول كمية من الأقراص .

نرى اسماعيل واميمة .. حزينة تبكى لما اصاب حبيبها، وتقول أنها حاولت بكل وسيلة أن تخرجه من حالة اليأس التى تردى فيها ولكنها أخفقت ، وأنها فقدته وهو ما يزال على قيد الحياة .

واسماعيل يبكى ابنه ، ويقول انه علم ـ بعد فوات الأوان انه ـ بأنانيته ـ كان السبب المباشر فيما جرى لكل من حوله :

فقد حطم حياة ابنه باهماله وقسوته واعتماده على غيره في تدبير شئونه .

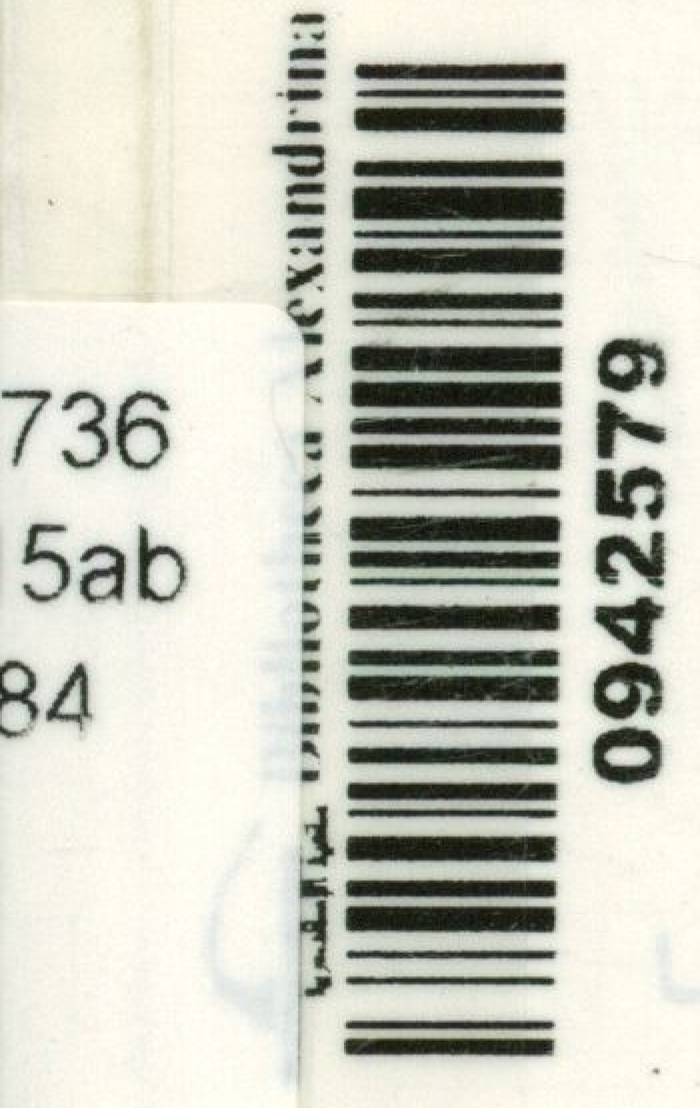
وجنى على زوجته بأن مهد لها السبيل للتردى فى الخطيئة ، باهماله أمرها وثقته الزائدة فى شريكه صالح .

وجنى على أميمة ، بأن حرمها من حبيبها ، وكانا يأملان أن ينعما بحياة سعيدة ، فهم — وصالح معهم — كانوا جميعا من ضحاياه .

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٠٣٦ ــ ٨٤
الترقيم الدولي ٠ ــ ١١١ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٦٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه